

أحمد فارس الشدياق

الواسطة
في معرفة
أحوال الناس

أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abuaab/>

مختارات (١١)

وزارة الثقافة

دار البعث

الواسطة في معرفة
أحوال مالطة

وزارة الثقافة

دار البعث

مختارات

٢٠٠٣ ١ ت	عبد السلام العجيلي	١- المقامات
٢٠٠٣ ٢ ت	وليد إخلاصي	٢- قصص
٢٠٠٣ ١ ك	محمد الماغوط	٣- غرفة بملايين الجران
٢٠٠٤ ٢ ك	صادق جلال العظم	٤- في الحب والحب العذري
شباط ٢٠٠٤	زكريا تامر	٥- سهيل الجواد الأبيض
أذار ٢٠٠٤	حنا مينه	٦- الرواية والروائي
نيسان ٢٠٠٤	شكيب أرسلان	٧- لماذا تأخر المسلمون
أيار ٢٠٠٤	ت: بديع الكسم	٨- الخلق الفني
حزيران ٢٠٠٤	حيدر حيدر	٩- الفهد
تموز ٢٠٠٤	سلامة موسى	١٠- ما هي النهضة
أب ٢٠٠٤	أحمد فارس الشدياق	١١- الواسطة في معرفة أحوال مالطة

أحمد فارس الشدياق

الواسطة في معرفة
أحوال مالطة

رحلات الشدياق

١- عن الرحلة:

ترمز رحلة رحّالة ما إلى دلالة تاريخية وثقافية واجتماعية تتجاوز في كثير من الأحيان مجرد رحلة مغامرة أو استكشاف شخصية، فالرحلة كثيراً ما تكون رمزاً ودلالة على وضعية، أو مرحلة تاريخية لمجتمع ما وثقافته، بقدر ما هي دلالة على الرحّالة ونفسيته وأوضاعه الفردية، فرحلة رحّالة مثل "إدوار لين" إلى مصر وسوريا (عادات المصريين المعاصرين وأخلاقهم: ١٨٣٦) مثلاً لها عكس دلالة رحلة نشرت في الفترة نفسها هي رحلة "رفاعة رافع الطهطاوي" إلى باريس، "تلخيص الإبريز في تلخيص باريز

١٨٣٤" فإذا كانت رحلة إدوار لين، وكل الرحلات الأوروبية إلى المنطقة العربية رمزاً من رموز التفوق والسيطرة الأوروبيين، مثلما هي شكل من أشكالهما، ومثلما هي، في كثير من الأحيان، عمليات استكشاف تمهيداً للاستعمار الأوروبي، فإن رحلة الطهطاوي إلى باريس، وكل الرحلات العربية إلى أوروبا، ترمز وتشير إلى شكل آخر من المجتمعات، وهي المجتمعات الضعيفة، إنها رحلة ترمز أو تشير إلى مجتمعات تتعرض للتفوق وللسيطرة الأوروبيتين، وتشير إلى الرغبة في التعلم واكتشاف سر تفوق الآخر عند الأوروبي، تشير إلى شعور بالتخلف والرغبة في تجاوزه لاحقاً، وربما من هنا تأتي تلك النظرة الاستعلائية التي نراها في رحلات غالب الرحالة الأوروبيين؛ حيث الشرق هو مكنن الغرابة ومسرح التخلف، مثلما هو أرض مفتوحة للسيطرة، وبالمقابل نجد في رحلات الرحالة الشرقيين، ومنهم العرب، نظرة الإعجاب والانبهار، بل وعقدة الدونية، أحياناً كثيرة، تجاه أوروبا متفوقة في علومها وصناعاتها وثقافتها، أوروبا سينسج كل شرقي وعربي حلم زيارتها، وبناء البيت على طرازها، بل وارتداء ملابسها وتناول طعامها، وبالطبع لا يخلو الأمر، أحياناً

من نظرات نقدية للرحالة العرب تجاه بعض مظاهر الحياة الأوروبية،
لكن ذلك لا يمس ما هو عام.

بالإمكان التوسع بهذه الفكرة، وربما الوصول بها إلى رحاب
أوسع عبر تقليبها على وجوها عبر التاريخ، كما أن بالإمكان
اختبار مصداقيتها عبر شواهد من أدب الرحلات على مر العصور،
وكتمرين في اختبار مصداقية هذه الفكرة نتساءل:

ألا تشكل رحلة ماركو بولو إلى الصين، أوائل القرن الثالث
عشر الميلادي، أول عملية استكشاف أوروبي للشرق الأقصى في
سبيل استعمارها فيما بعد؟ ألم تكن رحلة كريستوفر كولومبوس إلى
أمريكا محاولة للوصول إلى الشرق عبر طريق خلفية تمهيداً للاستيلاء
عليه؟ وهل كانت رحلات السندباد وابن فضلان وابن بطوطة
وابن جبير إلا إعلناً عن ثقافة واحدة كانت في مرحلة توسعها
وقوتها وسيطرتها، بل وانتشارها، وأخيراً، هل كانت رحلات
الأوروبيين، والتي تكاثرت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى
بلاد العرب، إلا تمهيداً وإعلاناً لبداية السيطرة الأوروبية-الرأسمالية

على العالم، واستكشافاً وتمهيداً لعلمية الاستعمار التي أتت فيما بعد؟...

وهل كانت رحلات العرب إلى أوروبا في الفترة نفسها إلا رحلات تعلم وإقرار بتفوق أوروبا؟...

... لكن لماذا يرحل الناس؟ لماذا يرحل طلاب العلم والتجار، لماذا يرحل الجواسيس والعشاق والصوفية وأصحاب الرأي المستقل والمطاردون السياسيون والباحثون عن لقمة العيش؟! وماذا يجدون في الآخر، أو عنده، وكيف ينظرون إلى هذا الآخر؟ كيف تلتقي ذات إنسانية بذات أخرى؟ كيف تلتقي ثقافة بثقافة أخرى؟ كيف يعيد الإنسان اكتشاف نفسه عبر اكتشافه لأخيه الإنسان؟ كيف يرى الإنسان مثيله، وكيف يرى الإنسان من سبقه، أو مَنْ تَحَلَّفَ عنه أو مَنْ شَاهِجَه؟

طريفة هي رؤية الآخر للآخر، فكلنا "آخر" في نهاية الأمر، فهذه الرؤية تمنح العين طزاجة جديدة تجدد النفس والبصر، تُشعِرُ

الإنسان أن العالم هو بيته، سواءً أكان بيته المرفوض، أم بيته المأمول،
جحيمة الذي هرب منه، أم جنته التي تاق إليها.

تستجيب الرحلة لذلك القلق الدفين والموّار في النفس
الإنسانية؛ قلق البحث، وقلق المكان، قلق السؤال والمعرفة
والاكتشاف، الرحلة تجعل المرء يدرك ذاته عبر إدراكه للآخر، تجعل
الذات آخر والآخر ذاتاً.. ربما لهذا يرحل الناس، وربما لهذا يكتبون
"قصص" رحلاتهم، وربما لهذا يقرأون رحلات الآخرين، رحلات
بعضهم بعضاً؛ رحلات أنفسهم.

٢- عن الشدياق

ولكن هناك نوعاً آخر من "الرحلة"، فثمة "رحلة الهارب"
وبالتعبير المعاصر "المنفي السياسي أو العقائدي" فالشدياق هرب إلى
مالطة لأسباب تستحق أن تُروى، ولكن في مكان آخر، وخلاصتها
أن فارس الشدياق هرب إلى مالطة بعد أن دفع أخوه أسعد
الشدياق حياته ثمناً لاختياره معتقده الفردي-الديني، وربما خاف
فارس، من أن يكون مصيره هو مصير "أسعد" وهكذا كان فارس،

هو وأخوه، من أوائل من أعلن، في الفكر والمجتمع العربي الحديث، حرية الفرد في اختيار معتقده، حتى ولو أدى به ذلك إلى الموت، أو "النفي" إِنْهما من أوائل طلائع الضمير أو الوعي الفردي المدني الجديد، الحرّ والذي به ينفصل الفرد، بضميره ومعتقده، عن الطائفة والقرية والعشيرة والمذهب ليؤسس اختياره الحرّ، ووجوده وضميره ووعيه الفردي-الإنساني، لكن ماذا عن أحمد فارس الشدياق؟!

لو جمعت "رابليه" و"أباحيان التوحيدي"، و"فولتير" و"الجاحظ"؛ كل هؤلاء معاً، ونشرتهم من الكتب أو من قبورهم، وجعلتهم يعيشون في القرن التاسع عشر لتمثل، لك خلاصتهم: أحمد فارس الشدياق، كاتباً وبشراً سوياً.

وحسبك أن أحمد فارس الشدياق هو -مثلاً- الأب الأدبي الشرعي لرائعة إميل حبيبي "المتشائل"، مثلما فنون المقالة والتعريب والتحقيق التراثي والصحافة والسخرية .. و.. و..

سخرية وجدية، ألم وتمرد وجراءة، ومجاهرة بالرأي إلى حدّ تغيير المعتقد الديني-الفردي أكثر من مرة. عملاق يلعب باللغة كما

يلعب الخزاف بالطين، فنرى بين يديه التراب -اللغة- وقد صار فناً. متهكماً على البشر والنفس والزمن. عنيف في خصامه وطفل في مزاحه ولهوه. صحفي وشاعر وكاتب ومحقق وناشر للتراث الأدبي العربي وعاشق للغة العربية ومخترع فنون أدبية من طراز "الساق على الساق في ما هو الفاريق"؛ أهم كتاب -في رأي بعض النقاد- كتبه العرب في القرن التاسع عشر، وربما في القرن العشرين. هذا هو الشدياق "عملاق النهضة" و"صقر لبنان" كما سماه "مارون عبود" وضمير المتحرر والساخر الأملعي في القرن التاسع عشر قرب بداية النهضة. هذا الشدياق الرجل الذي رحل بين المذاهب والأفكار، مثلما رحل بين البلدان والكتب، قارئاً ومحققاً ومترجماً وكاتباً وناشراً، نتمنى على القراء وندعوهم إلى قراءته، وليس مجرد الاقتصار على "الواسطة في معرفة أحوال مالطة" وهو الكتاب الذي تهديه وزارة الثقافة ودار البعث للقراء الأكارم هذا الشهر.

محمد كامل الخطيب

٢٠٠٤

المقدمة

الحمد لله الذي أحصى كل شيء كتاباً، وأعدَّ للمتقين جزاء وحساباً، وألهم ابن آدم أن يضرب في الأرض ويكدح لنفسه كدحاً، ويجوب مناكب البلاد ويسعى ليدرك نجحاً، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهرت آيات نبوته الناظرين، وبزغت شمس دينه فأفلَّ منها سهام الكافرين، ونادى بالحق فزهق الباطل وأحى طللَهُ، واندز فأرهب وبشر فأرغب وطاب مقاله ومقوله، خير من دعا وأمر، ونهى وزجر، ووعد فأبجز، وقال فأطنب أو أوجز، وأرشد فهدى، وأجدى من اهتدى، صلاة وسلاماً دائماً، متلازمين متلائمين، وعلى آله وعترته، وأصحابه وعشيرته، ما سرى الساري، وطلعت الدراري، (أما بعد) فإن الأسفار طالما

ذكرها الذاكرون، وبالغ في وصفها الواصفون، فمدحها من علت
مروءته، وسمت همته، وذمها من قصر عنها، ولم يكن منها، فمنهم
من شبه صاحبها بدراً إن لم ينقل لم يكن في التيجان منصوداً،
وبهلال إن لم يسر لم يصير بدراً مشهوداً، ومنهم من زعم أنها الحاملة
على الذل، المضیعة لحسب المرء والموقعة له في الضل، والحمول
وعدم الشكل، وإن الشيء إنما يبرز إذا كان في مستقره، حتى
عرفوا الظلم أنه وضع الشيء في غير مقره. ومعلوم أن محل العرب
مباين لمحل العجم، فكأن أحد الفريقين إذا جاوز محله فقد ظلم، إلى
غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات، كما جرت بذلك عادة
البلغاء في المحاورات، إذ كل حكم وقضية من القضايا الجارية أطلوا
فيها المقال، وجالوا فيها من حيث لا مجال، كاعتزال الناس
والانفراد عنهم، والمخالطة لهم والأخذ منهم، فبعضهم آثر الأول،
وود لو يقضي عمره على قمة جبل، وبعضهم شبه الزحام، بمنهل
عذب لذي الأوام، وأمثال ذلك لا تحصى، ولا تعد ولا تستقصى،
فكان الركون إلى ما قالوا، والمعول على ما فيه جالوا وأطلوا، غير
هاد وحده سبيلاً قويمًا، ولا شاف كليماً، إلا إذا امتحن الناقد

اللييب بنفسه أي الفريقين أصدق قيلا، وأهدى سبيلا، واطلع على
ماذا حملهم على الدم والقدح، والثناء والمدح، وماز العلم من
الجهل، والصالح من المعطل، فهو حينئذ خبير وأي خبير، غير مفتقر
إلى ناصح منهم ومشير، والحاصل إن لكل امرئ شأنا يعنيه،
ومطلبا هو مقتفيه، وأن ما قضى الله يكون، سواء أذمّ الدامون أم
مدح المادحون، هذا وقد كنت في عنفوان شبابي، زجدة جلبابي،
وأزهار سني، وازدهار ذهني، لهجاً بالسفر والاعتراب، والترحل عن
الوطن والأصحاب، إلى بلد ينضّر فيه غرسي، وتطيب فيه نفسي،
وأقتبس فيه من مصابيح العلم قبساً، وألقى إذ الدهر لي موحش
خليلا يصادقني مؤنسا، حتى أدتني أعمال حابطة، إلى جزيرة مالطة،
فألقيتها لا كما أملت، وكابدت منها ما لا يفي بما عنه ترحّلت،
فعنّ لي أن أظهر ما بطن منها، وأكشف مخبأها لمن رغب فيها أو
عنها، فألفت كتابا سمّيته (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) ثم لما
رأيت أن هذا الشرح لا يروي غليلا، ولا يشفي عليلا، لكونه
مقصورا على وصف الجزيرة، وهي من الصغر بحيث لا تمكّن
الواصف أن يطيل فيها من القول مأثوره، أو يضيف إليه فوائد

تاريخية خطيرة، ظلّ خاطري حائماً على مورد التأليف، وقلبي هائماً
بسفر طريف، إلى أن مكنتني المقادير الممكنة، بعد لبثي على تلك
الصخرة المدرنة، نحو أربع عشرة سنة، من السفر إلى بلاد الإنكليز
المتمدّنة، فاعتنمت هذه الفرصة عجلاً، وظننت أني أدركت أملاً،
وعوّلت على أن أشفع تأليف الواسطة برحلة يعظم وقعها، ويعمّ
نفعها، فصرت أقيد ما عنّ لي من الخواطر في وصفهم وسنح، وتارة
أنقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح، وللطرف إليه مطمح،
فإن شؤوهم متشعبة، وأحوالهم مستغربة، وأنحاءهم شتى،
ومقاصدهم تستغرق وصفا ونعتا، ويعلم الله أني مع كثرة ما
شاهدت في تلك البلاد من الغرائب، وأدركت فيها من الرغائب،
كنت أبداً مُنْعَصَ العيش مكدره، كمن فقد وطره، ولزمته معسره،
ولا طرب ولا لهو، ولا حسن ولا زهو، لما أني كنت دائم التفكير في
خلو بلادنا عما عندهم من التمدّن، والبراعة والتفنن، ثم تعرض لي
عوارض من السلوان، بأن أهل بلادنا قد اختصوا بأخلاق حسان،
وكرم يغطي العيوب ويستر ما شان، ولا سيما الغيرة على الحرم،
وصون العرض عما من هذا الصوب يُدَمُّ، ثم أعود إلى التفكير في

المصالح المدنيّة، والأسباب المعاشيّة، وانتشار المعارف العموميّة، وإلى
إتقان الصنائع، وتعميم الفوائد والمنافع، فيحفل ذلك السلوان،
وأعود إلى الأشجان، وكذا كان حالة السيد الأكرم المونس، أمير
الأمرء حسين باشا من أمرء تونس، فإنه لبث في باريس مدّة
طويلة، وخواطره ببلاده أبدا مشغولة، فكان يلزمه الأرق، والهم
والقلق، حتى مكّنه اليوم الباري تعالى من تحسين تلك الحاضرة،
وإمدادها بالمرافق الوافرة، فله الحمد على بلوغ أربه، وحصول
مطلبه، فإن تبهية الأمصار الإسلامية، أشهى إلى والله من كل أمنية،
كيف لا وعن المسلمين كان أخذ التمدّن والفنون في الأعصر
الغواير، وكانوا قدوة في جميع المناقب والمفاخر، والمحامد والمآثر،
وهذا التفكّر والأسف، والتفنّن المستأنف، كثيرا ما حملني على
الإضراب عن التّأليف، لعلمي أن كلامي فيه لا يكون إلا دون
التّأليف والتعريف، وأنّي لمثلي أن يدرك جميع ما عند أولئك الناس
من الاختراع، والإحداث والإبداع، إلا أن رغبت في حب إخواني
على الاقتداء بتلك المفاخر، هي التي سهّلت عليّ هذا الخطب
وأطالت باعي القاصر، فأمسكت القلم من بعد إلقائه مرارا،

وتوكلت على البارزي المعين أن يكشف لذهني ما عنه توارى، ويديني إلى فكري ما شط عنه مزارا، وحررت هذه الرحلة وسميتها "كشف المخبا عن فنون أوربا) وذلك لأني لم أقتصر فيها على شرح ما عند الإنكليز وحدهم من الفنون، بل استطردت إلى وصف غيرهم، أيضاً والحديث ذو شجون، وليكن معلوما عند القارئ، والسامع والداري، أني في كل ما وصفت به الإنكليز والفرنسيين وغيرهم من أهل أوربا، لم يمل بي هوى ولا غرض بغضا أو حبا، إذ ليس لي حذل مع أحد منهم ولا ضلع، ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع، وإنما رويت عنهم ما رويت، وحكيت ما حكيت، بحسب ما ظهر لي أنه الصواب، فلا ينبغي أن يحمل قولي على ضغن أو إغضب، وأعوذ بالله من أن أبخس الناس أشياءهم، فأتعمد القول فيما شأهم وساءهم، إلا أنه لا ينكر أن الإنسان محل النقص والمعيب، وأنه قل من ينظر إلى نفسه بعين المصيب، وكذا كنت أقول للإنكليز، فلم يكن أحد ينكر قولي أو ينسبه إلى التعجيز، ثم إنني بعد الفراغ من تحرير الرحلة المشار إليها عرضت عوارض كثيرة، وأحوال خطيرة، كحرب أميركا وبولاند مثلا، وكزيادة في

عدد سكان الممالك أو في أعمالهم مما استعظمه الناس وصار لهم شغلا، من جملة ذلك ما جرى في الممالك الإسلامية من التحسين والتنظيم، والترتيب والتميم، إلا أنني رأيت إيداعها في الرحلة نصبا مستأنفا، وشغلا لا ينتهي ولا يستوفى، فصرفت عنه صفحا، وصدفت كشحا، إذ حوادث الدهر، أكثر من أن يحصرها ذكر أو يحيط بها زبر.

أحمد فارس الشدياق

ملاحظة: هذه مقدمة كتاب: "الواسطة في أحوال مالطة وكشف المحبا عن فنون أوروبا" والمقدمة للرحلتين معاً، وقد صدرتا في كتاب واحد عن مطبعة الجوائب. القسطنطينية ١٢٩٩هـ= ١٨٨١ م الطبعة الثانية. وقد اكتفيا بنشر الرحلة الأولى: الواسطة في معرفة أحوال مالطة، وكان الشدياق قد كتبها أثناء إقامته في الجزيرة، وهي تقع في الصفحات (٢-٦٦) من هذه الطبعة. صدرت الطبعة الأولى من هذه الرحلة في تونس عام ١٨٦٦.م.خ)

فصل في

تخطيط مالطة معرباً

اعلم أن تخطيط مالطة هو في ٢٢ درجة و ٤٤ دقيقة من
الطول وفي ٢٥ درجة و ٥٤ دقيقة من العرض أما موقعها في الكرة
فإن بعض الجغرافيين أحقوه بأفريقية بالنظر إلى المكان وبعضهم
أحقه بجزائر إيطاليا بالنظر إلى عادات أهل مالطة وأحوالهم وديانتهم
والمراد بذلك أنها من أوروبا فممن أحقها بأفريقية برثولومي وممن
أحقها بأوروبا بليئوس وسطرابوس ودليلهما على ذلك كونها على
بعد ستين ميلاً من راس باسرو وعلى مائتين من كلبه نوميئا
أركولى والمحل الأول أقرب إلى أوروبا والثاني أقرب إلى أفريقية. قال
فاما عرضها فاثنا عشر ميلاً وطولها عشرون ودورها ستون

وقاعدتها الآن هي المدينة المسماة فالتة فأما في الأعصر السالفة فكانت نوتاييلي ويقال لها الآن المدينة وموقعها في وسط الجزيرة في أرفع موضع منها وكان الجزيرة منقسمة بها إلى شطرين أحدهما يمتد جهة الشرق والآخر جهة الغرب والذي بنى فالتة كان أحد أمراء الإفرنج وسماها باسمه وذلك سنة ١٥٧٦ وهي على ربوة بقرب البحر يقال لها شيراس. قلت زعم بعض المالطين أن أصل هذه الكلمة شير الرأس وبعضهم أنها جبل رأس وعندني أنها شعب الرأس قال في الصحاح شعب الرأس شأنه الذي يضم قبائله وهو كناية عن أصل الشيء ومجتمعه كما أن قبائل الرأس مرجعها إلى الشعب ويحتمل أنها سُميت بشيب الرأس لأن أهل مالطة إذ ذاك كانوا يناصبون المسلمين الحرب والثأر وكل فريق ملاق من فريقه ما يشيب الرأس. وذكر بوليه المؤلف الفرنساوي أن قاعدة هذه الجزيرة سُميت باسم الأمير لافاليت رئيس طريقة الفرسيان ولد في سنة ١٤٩٤ ومات في سنة ١٥٦٨ وكان شهيراً بالبأس والإقدام وأول ما استولى عليه من الجزيرة عند محاصرته المسلمين بها برج صانت الموثم قوي عليهم وأخرجهم منها.

قال المؤلف ثم خلفه باولودل مونتي فأتم بناءها في الثامن عشر من أيار وذلك في سنة ١٥٧١ وقبل بنائها كان مقام الرعماء المنتسبين إلى طريقة مار يوحنا في مرملة والبرغو بشرقي فالتة ويقال للثانية فيتوريوزا أي المنصورة لحرب انتصر فيها أهل مالطة على المسلمين وذلك في سنة ١٥٥٦ قال وفي ضواحي هذه المدينة قرية اسمها الفلوريانة وهي أعمر جميع قرى الجزيرة وجملتها أربع وعشرون قرية وهي جديرة بأن تسمى أمصاراً لكثرة سكانها وحسن بنائها وكنائسها. وعدد أهل الجزيرة كلهم نحو ١٢٠,٠٠٠ نفس. ولفالتة مرسيان أحدهما كبير يُعدُّ من أعظم المراسي وذلك لسعته بحيث يسع عدّة بوارج مع الأمن ولكونه في وسط بحر الروم فمن ثم كانت الجزيرة بهذا الاعتبار أعظم محل للتجارة على أن تلك المخازن العديدة والشؤون الرحبية المبنية عند هذا المرسى تُعْزِي الظاعن والمقيم بتعاطي التجارة فيها والثاني صغير وهو مرسى المراكب التي ترد من البلاد المشوبة بالوباء ويقال له مرسا مشطو محرفة عن مرسى الشط أما هواء الجزيرة فالغالب عليه الاعتدال غير أن أرضها صخرة لا تصلح من أصلها للحرث ومع ذلك فإن

السنبلة الواحدة تخرج في تربتها التي ليست بالطيبة ولا الرديئة ست
عشر سنبلة أو عشرين وفي عام الخصب ثماني وثلاثين وفي الجيدة
إحدى وستين وأخص أصناف غلالها التي يُتجر بها القطن، وقد
يُبعث منه إلى جهات مختلفة في أوروبا مقدار جزيل إلا أن بحسب ثمنه
رغب الأهليين عنه إلى غيره فصاروا يصرفون همّتهم في تربية التوت
فإن فيه نفعاً كبيراً وقد علم بالتجربة أنه يتحصّل منه حرير أعلى من
حرير إيطاليا. قلت وقد علّم بالتجربة أيضاً أن دود القز لا يعيش في
هذه الجزيرة والمؤلّف إنما كتب هذا عند الشروع في تربية التوت.
قال وفي هذه الجزيرة تنمو الأشجار المثمرة لأصناف الفاكهة الطيبة
كالرمان والتفاح والعنب والإجاص وأعظمها الاترج. فأما عدد
الأهليين الآن بالنظر إلى صغر الجزيرة فإنه عظيم جداً ولم يعهد من
قبل قط أنها كانت تحوي هذا المقدار وإنما يعلم أنها كانت مأهولة
بأسرها إلا أن بعض جهات منها خلّت من السكان كما يستدل
على ذلك من الآثار الباقية وما وصل إلينا من أسماء بعض قرى لا
وجود لها وسبب ذلك فيما قيل إن المالطيين حين كانوا تحت سلطة
الأرجونيين وجدوا أنفسهم عرضة لغزو المسلمين المتتابع ولهجوم

لصوص أفريقية فجعلوا مقرهم شرقي المدينة صيانة لعرضهم ومالهم وأحلوا الجهة الغربية. وذكر بعض الجغرافيين أن مالطة كانت تسمى في القلسم هيريرة وقال بعض إنه لم يوجد في بلاد أوربا جزيرة عُرِفَتْ بهذا الاسم وإنما هو اسم مدينة قديمة في صقلية ثم عرفت أخيراً باسم كامرينة ولما استوطن الفينيقيون هذه الجزيرة سمّوها أوجاجية وسمّاها اليونانيون مليتة واشتهر ذلك سنة ٨٢٢ قبل الميلاد وسمّاها المسلمون مالطة ومعنى ميليسية أو ميليتة في لغة اليونان النحل وزعم قوم أنها سُمِّيتْ باسم ميليتة ابنة دوريس على جهة التعظيم وهو مشتق من ميليت في السريانية وهو اسم إله ويعرف في غيرها بجونو ولا يبعد أن يكون ذلك أيضاً في اللغة الفينيقية قال وروى بعض المؤرخين أن بناء مدينة فوتابيلي كان بعد الطوفان بنحو ١٤٠٠ سنة وأعظم ما فيه عبرة من مبانيها قبل تاريخ النصرى هياكل جونو وابروسرين وهركوليس وأبولو. فموقع الأول هو بين فيتوريوزة وصانت أنجلو ويحكى أن ملك نوميدية الذي كان دأبه غزو مالطة كان قد أخذ منه قطعة بديعة من العاج وأهداها إلى أستاذه ففرح بها أولاً غاية الفرح ولكن لما علم أنها

أخذت من الهيكل رَدَّها إلى الملك والتمس منه أن يعيدها في محلّها.
وموقع هيكل إبروسرويين في قلعة تُسمّى مطرفة وقد وجد فيه آثار.
وموقع هر كوليس في جهة الجزيرة الجنوبيّة بالقرب من مرسى
سيروكو (أي مرسى الشرق) وهو من بناء الفينيقيين وقد وجد فيه
آثار كثيرة. وموقع هيكل أبولو عند نوتابيلي وهو بناء الإغريقين
وكان ذا رونق عظيم ويقال إن جملة ما أنفق في بنائه بلغ سبعمائة
وتسعين سترسيا وقد علم ذلك من وجود صنم نصبه له مجلس عام
ووجد أيضاً آثار حَمَام في محل اسمه قرطين. ومُنْ ذكر حكومة مالطة
من الشعراء الأقدمين أوميروس وأوفيدوس ويُفهم من كلام الأول
أن القبيلة التي يُقال لها الفياكنس هم أوّل من استوطنوا هذه الجزيرة
وكانوا ذوي قوة وبأس ثم خلفهم الفينيقيون وهم من جهات صور
وصيدا وذلك سنة ١٥١٩ قبل الميلاد وكانوا أهل سعي وكسب
وتجارة فلبثوا فيها نحو -أربعمائة وخمسين سنة- حتى تغلّب عليهم
الإغريقيون ثم سلّموها للقرطاجنيين وذلك نحو سنة ٥٢٨ قبل
الميلاد ثم جاء من بعدهم الرومانيون في سنة ٢٨٣ من التاريخ
المذكور فأقروا فيها أحكامهم وسننهم وأعظم ما حدث في دولة

الرومانيين مما لا ينبغي أن يُهْمَلَ ذكره قدوم مار بولس وانكسار السفينة به، وبمن كان معه وذلك سنة ٥٨ للميلاد في عهد القيصر طياريوس في موضع يقال له الآن خليج مار بولس -ومنذ ذلك الوقت تنصّر أهل الجزيرة ثم بعد انقراض دولة الرومانيين منها استولت عليها قبيلة الفندلس ثم القوث ثم تغلب على هؤلاء البليساويون وطردهم منها وألحقوها بحكومة البلاد الشرقية وبقيت كذلك إلى سنة ٧٨٠ فأخذوا في هضم الرعيّة فقاموا عليهم وسلّموا الجزيرة للمسلمين.

قلت ذكر في كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان أن مالطة فتحت في أيام أبي الغرائق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب توفي سنة إحدى وستين ومائتين وإنما لُقِبَ بالغرائق لأنه كان مشغولاً بالصيد روي أنه بنى قصراً في السهلين لصيد الغرائق أنفق فيه ثلاثين ألف دينار فكُنِيَ بهذه الكنيّة وكان في غاية الجود إلا أنه غلب عليه اللهو والطرب والأكل والشرب ولم يزل مقيماً على لذاته طول عمره. انتهى. فعلى هذا معنى لقول المؤلّف وسلّموا الجزيرة للمسلمين قال ثم قام الأمير روجر النورماني بعدها بمائتي

سنة واستردَّ الجزيرة وألحقها بصقلية فبقيت كذلك نحو سبعين سنة
ولما تزوّج القيصر هنري السادس قيصر جرمانيا وليّة عهد صقلية
دخلت مالطة في حكمه وذلك سنة ١٢٦٦ وبقيت كذلك اثنتين
وسبعين سنة وفي أثناء ذلك وُلِّيَ أخو لويس ملك فرنسا حكم
صقلية ومالطة معاً وبعد سنتين تغلّب عليه الأمير بطرس الأرجواني
ثم آل أمرها إلى الملك كرلوس ملك صقلية فولّى عليها الفرسان من
نظام مار يوحنا يرضى الأهلين واتفاق دول أوروبا وكان قد جرى
هذا النظام عندهم أولاً ثم لما نبغ نابليون واستولى على البلاد سلّمت
له الجزيرة على أن يرخص للأهلين في التصرف بحقوقهم إلا أن
الفرنسيين لم يلبثوا أن هتكوا بعض السنن القديمة وانتهكوا حرمة
الكنائس فتحزّب عليهم المالطيون تحزّباً لم يخل عن سفك دم كثير
منهم وعن تلف أموالهم إلى أن أتت الإنكليز فسلّموها لهم وكان
ذلك في سنة ١٨٠٠. قلت لما دخلها نابليون وجد فيها ألفاً ومائتي
مدفع ومائتي ألف رطل من البارود وأربعين ألف بندقية وعدّة
بوارج و٤,٥٠٠ أسير من المسلمين فأطلقهم وذلك في سنة
١٧٩٨. قال فأما أخذ المسلمين لها فإنه كان من باب المصادقة أولى

منه من المغالبة وغاملوا الأهليين أولاً بالرفق والمياسرة ووقروا سننهم وأحكامهم وامتزجوا بهم للغاية حتى كأن الجليلين واحداً كما يتبين من بقاء لغتهم فيهم.

قال أما لغة مالطة فذهب بعضهم إلى أنّها عربيّة فاسدة وذهب آخرون إلى أنّها فينيقية لأن اليونانيين بعد أن فتحوا الجزيرة لم يخرجوا منها الفينيقيين بل ظلّوا فيها آمنين محافظين على لغتهم وما برحت مستعملة حتى بعد استيلاء الرومانيين عليها وأنّها لم تتغيّر في مدن القرطاجنيين لأن لغة هؤلاء أيضاً كانت فينيقية ومع أن دأب الرومانيين كان حمل الناس على التخلّق بأخلاقهم والسلوك بسننهم أينما ملكوا فلم يجبروا الرعيّة هنا على التكلّم بلغتهم والدليل على ذلك أن الرومانيين الذين كانوا مع مار بولس سموا المالطيين بربراً ولم يكن يطلق هذا الاسم إلا على من جهل اللاتينية واليونانية قال ثم بقيت في دولة المسلمين أيضاً ولم تتغير وإنما دخل فيها بعض ألفاظ أجنبية ويؤيد كونها فينيقية مشابهة بعض ألفاظ منها للغتنا نحو بير وصيد فإنهما في الفينيقية بر وصد وغير هذا كثير نما له لفظ واحد ومعنى واحد في كلتا اللغتين والحاصل أن مأخذ

اللغة المالطية من الفينيقية أرجح من أن يكون من العربية وإن كانت قريبة من هذه أيضاً. قلت دليله هذا أوهى من بيت العنكبوت فإن البير والصيد يُنطَقُ بهما في لغتهم كما في لغتنا سواء ما عدا موافقتهما في تصريف الأفعال والأسماء وفي الضمائر وغير ذلك من أساليب الكلام كما سيأتي بيان ذلك. ومن الغريب أن المؤلف لا يعرف الفينيقية ولا العربية ولا المالطية وإن كانت لغته ويتعرض للحكم والاستدلال فكيف يحكم على الشيء وهو يجهله وكيف يقول أولاً أن لغة المسلمين بقيت في أهل مالطة لشدة الالتحام الذي كان بين الفريقين ثم يقول الآن إنها فينيقية لمجرد وجود كلمتين فيها وإنما حمّله على هذا بغضته وبغضة أهل بلاده للعرب وتبرئة أنفسهم أنهم ليسوا منهم بل من الفينيقيين إذ كان هؤلاء كما ذكر أرباب جد وتجارة والعرب عند أهل مالطة كناية عن الهمج وذلك لجهلهم التواريخ ولأنهم لا يرون الآن إلا صعاليك المغاربة والظاهر أن المسلمين الذين فتحوا مالطة لم يكونوا من أهل العلم والتمدن كالذين كانوا في صقلية وغيرها فإني لم أجد فيما قرأت قط من كتب الأدب والتواريخ قال المالطي والسيوطي رحمه الله لم يغادر في

كتاب الأنساب الذي سمّاه لب اللباب أحداً من أهل العلم إلا وذكره ما خلا المنسوب إلى مالطة. قال أما جزيرة غودش وتسمى بالإفرنجية كوتز فزعم بعض أن هذه اللفظة يونانية ومعناها مركب مستدير وهي كأنّها ذيل انقطع من مالطة وطولها اثنا عشر ميلاً في عرض ستة وأهلها نحو خمسة عشر ألفاً وجملة قراها ست ومدينتها تسمى الربط (كأنه محرف عن الربض) وفيها آثار قلعة قديمة وبقول الجزيرة وفاكهتها طيبة جداً وكذا غسلها حتى أن الأقدمين كانوا يفضلونه على غسل جبل هيبلا ويرد منها إلى مالطة قوارب كثيرة مشحونة بالفاكهة والبقل والسمك وحكومتها ملحقة بمالطة وكذا كانت في الزمن القديم وزعم بعض أن مالطة وغودش وكمونة كانت في الأصل جزيرة واحدة وحدث لها من الزلازل ما فرقتها.

انتهى المنقول من كتاب مختصر ألفه مكلف

في تاريخ مالطة.

وأقول قد رأيت جزيرة غودش غير مرة أما اسمها فأظنه محرّفاً عن لفظة اليهودج سمّاها به المسلمون لشدّة شبهها به كما سمّوا الجزيرتين الآخرين كمونة ولفلة لصغرهما إلا أن أهلها ينطقون بها بالغين المعجمة لا بالمهملة كما ينطق به أهل مالطة ولا أعلم في لغتهم كلمة غيرها قلبت فيها الهاء غيناً فأما قلب الجيم شيناً فكثير أما أرضها فأحسن من أرض مالطة ولا سيما كون حقولها مكشوفة للنظر كحقول فرنسا وإنكلترا لا كحقول أهل مالطة كما يأتي وهي أزكى ثمرّاً ونباتاً وأهلها أخلص طويّة وفيها الحمير والبغال ضليعة لكنّها غير فارهة وربما بيع الحمار منها بأربعين ليرة أما شجرها فإن التفاح لا يكاد يكون أكبر من العليق في الشام وشجر التين منبسط على الأرض وليس فيها من شجر الجوز سوى شجرة واحدة وفيها أيضاً نخلة لكنّها لا تثمر وأسماء قراها ومواقعها كلها عربية محضة ومما أضحكي من خرق أهلها أنّهم يدرسون القمح على البهائم من دون نورج وذلك بأن يربطوا مثلاً كل زوج منها في قرن ويمشوهما على السنابل

فيثور هذا ناحية وذاك أخرى وكذا هي في مالطة ومن غرابية
أرض غودش أن جميع محالها مزروعة محروثة إلا ما قابل مالطة
فكأنه من قبيل مراعاة النظر أما كمونة فليس فيها سوى
بيت واحد وكنيسة وأرضها قليلة الجدوى.

فصل في

هواء مالطة ومنازلها وغير ذلك

إنما قدّمت هذا الفصل من كلامي لأهميته فإن العافية خير ما ملك الإنسان، وإن أرضاً لتأكل من نازلها لجديرة بأن لا يؤكل منها فأقول قد تقدّم فيما مر بك موقع هذه الجزيرة وبقي الآن الكلام على هوائها من حيث هو هو فإن الهواء لا يعرف غالباً من مجرد نسبة الموقع أما اشتقاق اسمها إن كان عربياً فمن م ل ط ومعظمه يدل على التجرد والخلو أو التجريد والإخلاء فتكون قد سُمِّيَتْ بذلك لخلوها من الغياض والجبال والأنهار وغيرها وفي القاموس وَمَالَطُهُ كَصَاحَبِهِ (أي بلد) وكان عليه أن يذكر خصوص كونها

جزيرة فإنه كثيراً ما يتعقب الصحاح بمثل ذلك فأما قوله أولاً مَلَطَ شعره حَلَقَهُ ثم قوله بعد فاصل والأملط من لا شعر على جسده وقوله في أول المادة الملط الحبث لا يرفع له شيء إلا سرقه ثم قوله عند الآخر واملطه اختلسه فمن اختلاط الترتيب في التركيب. وممن ذكر مالطة أيضاً المطران جرمانوس فرحات في كتابه المسمى "باب الإعراب عن لغة الأعراب" قال ومالطة جزيرة عاصية متقاصية قرب صقلية سكانها لصوص البحر. قلت لعل تأليفه هذا الكتاب كان قبل سفره إلى رومية وإلا لما قال متقاصية أو أنه جاء بها للمجانسة أما قوله سكانها لصوص البحر فينبئ بما كان لأهلها حينئذ من الشهرة الذميمة عند أهل المشرق وكأن هذه الصفة كانت غالبية حتى أنسته أن يقول لغتهم العربية ودينهم النصرانية فأما الصحاح فذكر ملطية في بلاد أرمنية والآن تعد من الممالك العثمانية. أما هواء مالطة فلا يحمد من ألف البرور الواسعة لأنه كثير الثقل فيختلف في الليل والنهار عدة مرات فقد يكون في الصباح صحو فلا تشعر إلا والغيم قد طبق أعنان السماء فيكفه الجو ويهيج البحر وتثور الزوابع وتزمر الرياح تفرقص لها الأبواب بل قد يكون في النهار برد وفي

الليل حرٌّ هذا في الشتاء، فأما في الصيف فلا ترى في الجو لطخة
سحاب ولا غادية أصلاً وفصل الشتاء يتدبّر فيها من شهر تشرين
الأول وينتهي إلى أيار والباقي صيف شديد وإن وقع في خلال ذلك
يوم معتدل فتأتي فيه نفحة من الريح باردة، وأخرى حارة أو تكون
النور وهي من الرياح ما فاجأك ببرد وأنت في حر أو عكسه وفي
الجملة فإنّها جديرة بأن تُسمّى مخزن الرياح فهي لا تخلو منها باردة
كانت أو حارة وأكثر رياحها في الصيف السافياء تأتي بغبار وتراب
دقيق تطيره على وجوه الناس وتدخله في الديار من خصائص
الزجاج. ومن الغريب أن الريح الشرقيّة التي تكون في الشتاء
زمهرياً تصير في الصيف سموماً فتشقق بها أخشاب المنازل وهي
مصبوغة وتصبر بها روافد السقوف ويحفّ بها الزجاج ويتصلّب
فيكسر بأذن مس ويقرمد بها الجلد والورق بل يتأثر بها الحديد
والنحاس والعظم ونحوه ويتنّ شمع الشحم فتكون الشمعة في البيت
كالجيفة وقد تبلغ درجات الحر فيها فوق المائة فيقضي الومد حينئذ
باللباس الخفيف من الكتّان والنوم من دون غطاء وأكثر أهل مالطة
ينامون ليلاً على السطوح لكون سطوح ديارهم غير مسنمة بخلاف

الديار في أوروبا وإذا مشى الإنسان خطوات في الصيف يعوم في عرقه ثم لا يلبث أن تلفحه لفحة من الريح فينبغي أن يكون أحذر من غراب هذا ولما كانت أرض الجزيرة خالية عن الأجم والغياض والجبال والأنهار إذ هي عبارة عن صحن في وسط البحر.

فمضى أصابتها الشمس مسحتها مسحاً على السواء فلا ملطاً فيها من شيء وربما زاد حرّها أيضاً بسبب النار التي تخرج من جبل صقلية ومع قربها من إيطاليا فليس في ديارها رخام كديار تونس وليس في شيء منها مياه جارئة كديار الشام. ومن جملة الأسباب التي تجعل شتاءها عارماً مكروهاً كون بنائها من حجر رطب لو جعل في مقمأة بضع سنين لأكلها(*) وحين يستخرج أولاً من مقطعه يكون أخضر مائياً ولا يبيض إلا إذا نصب للهواء والشمس سنين ومن خواصه أنه قابل للنقش فلهذا ترى منه في الديار والكنائس نصمات شتى وقد يبعث منه على سبيل التجارة إلى جميع البلاد وكثيراً ما تتوارى الشمس في فصل الشتاء فلا تطل فيه ولا من شباك فأين هذا من شتاء مصر حين يترحب بالشمس طالعة

(*) أي نبت عليه "الكلا"، العشب. م. خ

وَتُشَيِّعُ غَارِبَةً وَفِي الصَّيْفِ يَطْفُو نَيْلُهَا فَيَرْتَبُّ الْأَرْضَ وَيَنْتَظِمُ بِهِ شَمْلُ
الْأَحْبَابِ وَعَقُودُ الْمَسْرَّاتِ. وَإِذَا اتَّفَقَ فِي مَالِطَةِ يَوْمِ صَحْوٍ فِي الشِّتَاءِ
رَأَيْتَ النَّاسَ جَمِيعاً يَعْدُدُونَ مَحَاسِنَهُ وَيَصِفُونَهُ وَيَلْهَوْنَ عَنْ سُوءِ
أَيَّامِهِمُ الْآخِرِ حِينَ إِذِ الرِّيحِ تَأْخُذُ بِنَاصِيَةِ السَّائِرِ وَالْمِيَاهُ تَهْطُلُ مِنْ
أَنْفِ كُلِّ سَحَابٍ وَالزَّكَامُ مَلَازِمٌ لِلْأَنْوْفِ وَالسَّعَالُ قَابِضٌ عَلَى
الْحَلَقُومِ وَأَشَدُّ مَا يَسُوءُ مِنْهَا اسْتِمْرَارُ الرِّيحِ أَيَّاماً مُتَوَالِيَةً مِنْ دُونِ
مَطَرٍ فَإِنَّهُ قَدْ يَأْتِي عَلَيْهَا مِنَ السَّنِينَ مَا لَا يَغْزُرُ فِيهِ الْمَطَرُ وَالرِّيحُ مَعَ
ذَلِكَ لَا تَهْدَأُ أَصْلاً وَقَدْ احْتَجَّاجُوا فِي بَعْضِ السَّنِينَ إِلَى الْغَيْثِ غَايَةً
الْإِحْتِيَاجِ حَتَّى فَرَضَ عَلَيْهِمْ أَسْقَفَهُمْ دَعَاءَ لِلْإِسْتِمْطَارِ فِي الْكُنَائِسِ
مَعَ الصِّيَامِ وَالرِّيحِ مَعَ ذَلِكَ تَزِيدُ عَصُوفًا فَقُلْتُ:

وَلَمَّا لَمْ يَطِقْ كَانُونُ قَطْرًا

تَوَلَّى وَهُوَ يَحْبِقُ بِالرِّيحِ

فِيَا قَوْمَ اغْسِلُوا بِالْدمَعِ فِيهِ

وَجُوهَكُمْ وَصُومُوا عَنْ سَفَاحِ

وفي الجملة فإن صيف مالطة وشتاءها شاقان جاهدان
يهجمان بغتة فأخر ذنب الشتاء معقود بناصية الصيف فليست
كمصر والشام فإن الإنسان فيهما يتعوّد على تخالف الفصول شيئاً
فشيئاً وليس من علامات الربيع شيء بمالطة سوى تكاثر البراغيث
فهي آفة من الآفات ولا من علامات الخريف سوى تناثر أوراق
الشجر المعدودات، ومع ذلك فإن كثيراً من الإنكليز يأتون إليها
ليقضوا فيها الشتاء أما عدم المطر فيها في الصيف فسببه قلة الشجر
والغياض فإن السحب إذا مرّت فوقها لم تجد ما تجذب منه رطوبة
ولعلّ الأدوية والعقاقير التي تبقى مدة طويلة في مالطة تفسد بالكلية
ويزول ما بها من الخاصة فإن التبغ والنشوق والخمر إذا بقيت فيها
زماناً يزول طيبها رأساً لأن مبلط الديار وحيطاتها وسقفها من
حجر ندى كما مرّ فإذا وضعت مثلاً ملحاً في خزانة لا يلبث أن
يندى كأنه خلط بالماء وكذلك تعفن المأكولات والمشروبات إذا
وضعت في مخدع من خشب مصبوغ فإن النداوة تسري إلى الصبغ

ولذلك كان البدل وهو داء المفاصل شائعاً في مالطة وقل من يسلم منه وقد أصبت به أول سنة فكنت أقوم في الصباح موجه الأعضاء لا أنشط إلى شيء وما زال ذلك يتزايد بي حتى لزمت الفراش فلما عادني الطبيب ورأى مبلط المنزل أخبرني بالسبب فعظم عليّ ذلك ثم لما سمعت بأن أكثر الناس ممنيون به هان عليّ ما لاقيت وتأسيت بهم ودواء هذا الداء الإقامة في محل مواجه للشمس عند طلوعها وقد كان يعلو كتي من أثر الندادة عطن يلتصق به بعض الورق ببعض ومن جعل مرقده قرب حائط فلا يأمن غائلة صداع أو وجع أسنان ومن يكن ذا علة في صدره فأعظم خطر عليه التعرّض للريح بعد أن يكون في محل دفي مع أن الغالب على أهل مالطة الشدة والقوة غير أنهم ولدوا على هذه الحال فلا تؤثر فيهم رداءة المكان ولا الزمان ومما توصي به الأطباء هنا اتخاذ غلائل الصوف المسماة فلانلة صيفاً وشتاءً أما في الشتاء فللداء وأما في الصيف فلتنشيف العرق ومنع ضرر الريح النافذة في المسام حتى أنهم يخشون من الريح على الحيوانات فإنهم إذا أوقفوا الحصان في سيره أداروا وجهه إلى غير جهة الريح وقس على ذلك. أما أرض مالطة فإنها ملطمة صخرة

جرداء قليلة الثرى والشجر والنبات ودائرها كله صخر لا ينبت فيه شيء إلا أنه لشدة اجتهد أهلها وفرط كدحهم ينبت فيها أكثر أصناف البقول والفاكهة لكن غلتها لا تكفيهم أكثر من أربعة أشهر والباقي يجلب إليهم من بلاده فيجلبون القمح والقطاني من مصر ومن بلاد الترك والروم ويجلبون الفاكهة والخمر من صقلية والبقر والضأن والزيت من أفريقية وهلمَّ جرّاً وزعم بعض أن تراها مجلوب في الأصل من صقلية وترى شجر الخرنوب والصبار التي لا تتوقف على كثير من الثرى أعز من شجر الجوز في الشام أما شجر الخرنوب فيكون لاصقاً بالأرض كأنما هو أزرار وأما الصبار فتراه محوطاً بالجدران العالية كأنما هو حديقة وينوطون بكل منها ورقة من الثوم منعاً لإصابة العين مع أنما مما تنبو عنه العين وإذا سألت أحدهم عن قلة الغياض عندهم قال نحن معاشر الإفرنج لا نصرف همناً إلا إلى زرع الأرض فما أقل ظلهم وأكثر ظلمهم. وإذا ضحيت إلى الخلاء وجدت بين كل حقلين جداراً عالياً لحجز رؤية ما دونه فأين هذا من سهول فرنسا وإنك لترا البادية للعين على نضرتها

وريعها وعلى كثرة ما فيها من أكاديس الغلال والعشب من دون
ناطور يحفظها أو حائط يسترها.

ويوجد في مالطة أكثر أصناف الأشجار المثمرة والبقول
المأكولة وفاكهتهم طيبة في الجملة إلا الليمون الحلو وقصب السكر
والخيار فأما الصبار فأكثره نوى وكذا الرمان وأكثر الفاكهة يباع
فجاً وقلماً يدعونها تنضج خوفاً من اللصوص أن تسرقها وجميع
أصنافها أرخص منها بمصر والتين على أصناف متنوعة والعنب
لايدوم أكثر من ثلاثة أشهر أما البردقان فإنه يدوم نحو سبعة أشهر
ويرسل منه إلى بلاد الإنكليز وغيرها كالطرفة فأما ما يأتيها من
التمر من صقلية فإنما هو سداد من عوز وعندهم من الفاكهة
أصناف لا توجد في بلادنا منها صنف يقال له الفراولي وهو حب
أحمر صغير بقدر ثمر العُليق حامض يصلحه السكر وآخر يقال له
نصلي وهو شبيه بالمشمش أو بعين البقر نواه كبير وآخر اسمه زربي
وهو أشبه بالزعرور شديد الفجئة يجعلونه أعذاقاً كأعذاق التمر
فينضج منه كل يوم حبات ويدوم العنق بجملته أشهراً ولا يعرفون
حفظ الفاكهة إلى أوان الشتاء كما يفعل في بلاد الإفرنج فإن العنب

والتفاح في فرنسا وإنكلترا لا ينقطعان أصلاً أما بقولهم فقير طيبة
وذلك لكثرة مائيتها فإذا رأيتها في السوق سرك نضارتها ولكن متى
طبخت جاءت مسيخة حتى أن البصل والفجل وما أشبههما مما
طبعه الحرافة لا طعم له عندهم لا بل إذا جلبت من بلاد أخرى
يتغير طعمها وكذا الكرنب والبادنجان ونحوه ولا يكاد يبدو نوع
منها إلا ويغلظ ويحسو ومن الغريب أن نباتها مع كونه بهذه الصفة
فعلسها في غاية الجودة ومما لا يوجد عندهم من الخضرة الكوسى
والقتاء والملوخية ومن غيرها اللبن والقشطة والسمن وإنما يجلبون
نفاية هذا أحياناً من طرابلس الغرب وأهل مالطة جميعاً يتقززون منه
ويطبخون أدامهم بشحم الخنزير. أما ماؤها فإنه ماء المطر مخزوناً في
الآبار غير سائغ فما شربه ذو تعب أو ظمأً إلا وأصابه سعال وكثيراً
ما يحدث عن شربة واحدة نفث الدم فشتان بينه وبين ماء النيل
الذي يطيب شربه على التعب والظمأً ولا يزيد الشارب إلا صحة
ونماء جسم فلا ينبغي لأحد أن يشرب من ماء مالطة إلا ترشفاً
وئقل عن أرسطو أن الماء الراكد الذي لا تقع عليه الشمس لا
يكون إلا ثقيلاً وتتولد فيه مادة طينية. أما حدائقها فأشهرها حديقة

صانت أنطونيو مقر الحاكم في الصيف وهي التي نزل بها الأمير شهاب بأهله أخلاها له الحاكم إجلالاً لشأنه وهي نصيرة حسنة الوضع إلا أنها في منخفض من الأرض وليس فيها مقاعد أو مواضع ليأكل فيها المتفرج أو يشرب وليس للمالطين عادة أن يأخذوا إلى مثل هذه المتزهات طعاماً لا في الأعياد ولا في غيرها أتباعاً لعادة الإنكليز إذ لا يمكن لهم الجلوس إلا على كرسي فغاية حظهم من ذلك إنما هو المشي أو أن يضع أحدهم ذراعه بذراع صاحبه ويمشيان الخلاء أو أن يمشي وحده وهو يصفر ويمكو وعلى تقدير وجود رصف عندهم أو روضة فلا يعرفون كيف ينسبطون عندهما سوى بالمشي وأعرف رصفاً يسمى البياتا أنيقاً جداً ولكن ليس فيه محل للقهوة ولا للمثلوج ولا مطعم ولا آلة طرب ولا كرسي يجلس عليه ولو كان مثله في باريس أو في مصر أو الشام لرأيت من أوله إلى آخره مرصوفاً بالكراسي والمتكآت ومشملاً على كل ما تطيب به النفس وفي الجملة فإن الإنكليز والمالطية جميعاً لا ذوق لهم في مثل هذه الأمور. ثم البوسكت ومعناه الغيضة وهو على بعد ثلاث ساعات من فالتة وهو سيئ النجار قليل الجدوى فإنه عبارة عن

شجرات معدودات وزهرات شعث لا صنعة في تنبيتها إلا أن فيه
قبوة فيها عين نضّاحة وحولها مائدة ومقاعد من حجر يقعد عليها
الآكلون وهذا الموضع أنزه موضع في الجزيرة وذاك الماء أعذب ماء
بها وبقربه برج كان في القدم سجن يُعذَّب فيه من يخالف الكنيسة
كما كانت العادة في إسبانيا وغيرها. ثم المطحلب وهو أنضر من
البوسكت وأبعد لكونه عند أقصى مالطة طولاً. وفيه بركة يعلو
ماءها طحلب وكأنّ الموضع سُميَّ به. ونوايرهم نحو نواير الشام
ومصر. وأهل تونس وطرابلس يستعملون السانية وهي في اللغة
الناقاة يسقى عليها ويطلقونها على البستان. والحاصل أن جزيرة
مالطة لا تعجب من الإفرنج إلا القليل وذلك لأنهم إذا جاؤها لم
يجدوا فيها شيئاً غريباً لا يوجد في بلادهم فإن كل ما فيها أن هو
إلا نفاية ما عندهم. هذا وليس منهم من يرغب في علم اللغة المالطية
إذ كانوا يعلمون أنّها عريضة فاسدة وليس فيها من الصنائع والفنون
ما يجله أهل الرستاق منهم فضلاً عن المتمدين وإنما هي مجاز
يجوزون منها على الشرق نعم أن بعضاً من المظلومين في إيطاليا
وخصوصاً صقلية يأتون إليها للاستئمان وأنّها لما كان موقعها بين

عدّة برور شرقية وغربية حصلت على هذه الشهرة ولا سيما
الآن فإنه قد يتعدّر السفر إلى بعض جهات الشرق من دون المرور
بها. فأما العرب فرمما لا تعجب منهم أحداً وذلك لأن أهل مالطة
جميعاً يكرهون جنس العرب والمسلمين على الإطلاق ومنتهى الهم
عندهم أن يقولوا عربي بسكون الراء على أنها في جميع لغات
الإفرنج بالفتح ولا يمكن أن يخطر ببالهم أن من العرب من هو ذو
أدب وكياسة بل لا يكادون يظنون أن اللغة العربية يتكلم بها غير
المسلمين وحيث كانوا يعلمون أن الإفرنج ينسبونهم إلى العرب
زادت بغضتهم لهم فما أحد ممن ألف الحظ في الحمام والبساتين
والغياض والمواسم والتأنق في المطاعم يترك بلاده ويأتي إلى هذه
الصخرة الصماء. هذا ومن يكن من العرب ذا غيرة على لغته فلا
يطيق أن يسمع الكلام المالطي على فساده ومع كون هذه الجزيرة
قرية جداً من تونس وطرابلس فما بها أحد منهما إلا عابر طريق
قال الشاعر:

وأصعب ما يلقي الفتى في زمانه

إذا حل نجم السعد في برج نحسه

إقامته في أرض من لا يؤدّه

وصحبته مع غير أبناء جنسه

فصل في

فالتة قاعدة جزيرة مالطة

هذه المدينة هي مقر الحاكم الإنكليزي وأعجب ما فيها
حصانة أسوارها وحسن مرسيتها. أما الأسوار فربما كان نصف
أحدها من صخر وتماه مبني بناء. وأما المرسى فقد مرّ ذكره
والغالب عليها الرونق والبهجة حيث كان بناؤها من الحجر كما مر
وطبقاها مزججة ولا سيما إذا عرضتها من بعد غير أنها خالية من
المنائر ونحوها فهي بدونها كالهامة القرعاء وأحسن ما يستحب من

ديارها كونها مبنية من الحجر على صف مستو فلا ترى فيها داراً خارجة عن الخط أصلاً غير أنها متفاوتة الارتفاع وليست مرتبة في وضع الغرف والمساكن فإن الدار الكبيرة تكون عبارة عن عليّة واسعة طويلة ثم صف حجرات متنافذة المدخل فلا يمكن للإنسان أن ينفرد بوحدة منها دون الأخرى فأما الديار الصغيرة ولا سيما القديمة فهي خالية عن الترتيب أصلاً ومنجورها يصنع غالباً في كل سنة وحيطانها ملبّسة بالورق المنقوش كما بلاد أوروبا إلا أن طاقاتها لا تفي بالمراد فإن بين الأهلين حقوقاً في المطال فلا يمكن فتح الطيقان في جميع الحيطان وما عدا ذلك فإن لها رواشن خارجة من الحائط موضوعة بحيث تمنع النور والهواء وهي عاليّة لا يمكن لمن يكون في الحجرة أن يرى منها شيئاً إلا إذا كان واقفاً أو جالساً على كرسي وهي أشبه بما يسميه أهل الشام كشكاً ويقال أن وجود هذه الرواشن بمالطة هو أحد الأدلة على كونهم عرباً إذ هي لا توجد في بلاد الإفرنج إلا ما فتحتة العرب منها وربما كان في الدار الواحدة ثلاثة رواشن وقلّ أن تجد داراً ذات ثلاث طبقات صالحة للسكنى والأغلب اثنتان وإن وجد فالثالثة إنما تكون للوازم

الدار وقل أن ترى فيها داراً مبلطة بالرخام حتى أن قصر الحاكم ليس فيه ولا بلاطة منه وإنما المستعمل في ديار كبرائهم البلاط المعروف. ولكن يدهنونه بالزيت مراراً بعد أن يكشط وجهه فيصير له لون كالكهرباء، وكذلك قل أن ترى في الديار التي تكثر خزائن أو مخادع أو رفوف وإنما يلزم شراء ذلك على حدته وليس فيها ولا في غيرها فوارات ولا ساحات فسيحة كديار دمشق ولا اسطبلات ومن كان عنده فرس ربطه في الخارج وأقل من ذلك الممارات فإنهم يشترون مؤنتهم يوماً فيوماً بل ربما إذا ادخروها فسدت كما تقدم ويرون ذلك تخفيفاً للكلفة فإن صاحب العيلة إذا ربى في منزله الحيوان وخزن المؤنة وأخذ الخبز كان له ولأهله شغل شاغل ولعل سبب ذلك في الأصل عدم انتقال الأسعار. ومما يقبح ذكره هنا أن أكثر البيوت الصغيرة ليس فيها مراحيض فيرفع أهلها أقدارهم في وعاء ويقذفون بها في الطرق ليلاً فيأتي الكناسون للطرق صباحاً ويزيلونها وقد كانت العادة من قبل أن المحبوسين لجرائهم هم الذين ينظفون الطرق بأن يخرج بهم شرطي وهم مقيدون والظاهر أن المالطين قبل مجيء الإنكليز إلى جزيرتهم لم يكن عندهم مراحيض

وإنما كانوا يستغنون عنها بثقوب ينقبونها في أسفل الدار وكانوا غير محتاجين إليها أصلاً كما قال الشاعر:

من يكن عيشه كعيشك هذا فلتكن داره بغير كيف

وقلّ أن توجد دار بآثاثها وفرشها كما في مدن الإفرنج ومن شروط الإيجار أن يستأجر الإنسان الدار على ثلاثة أشهر فما فوق ذلك ويعطي الأجرة سلفاً وقبل انقضاء المدة بأيام يؤذن المستأجر ربحاً بأنّه يريد أن ينتقل منها أو يُجدّد استئجارها فإذا انقضت المدة ولم ينتقل لزمه إعطاء الأجرة غير أنه لا يسوغ للمالك بأن يرمي بأمّعة المستأجر أو يخرجها كرهاً وإنما عليه أن يضرب له أجلاً ولو شهراً وإذا عرضت دار للكراء كتب صاحبها ورقة تؤذن بذلك وألصقها ببابها إذ ليس عندهم شيخ حارة تتجمّع عنده المفاتيح كما في مصر.

ومن استأجر داراً فلا بد وأن يدخلها مبيضة مصبوغة المنحور
وصبغ الخشب عادة حميدة فإنه أهى للنظر وأبقى للخشب وقد
تظهر به الدار بهيئة في الخارج وربما كان داخلها بخلاف ذلك وهي
عكس العادة عندنا فإن خارج ديار مصر والشام مظنة للهمجية مع
أن داخلها منقوش مزخرف وسبب ذلك أن الحكام في السابق
كانت أيديهم ممتدة لأخذ أموال الناس فلم يكن أحد من الرعية
يتظاهر بالغنى لا في بناء ولا في لباس أما صبغ الزجاج في مالطة فغير
مستعمل. ثم ليس على عزب أراد أن يسكن بين المتزوجين من
حرج ولا حرج عليه أيضاً في الصعود إلى سطحه ولا يطلب منها
ضامن من حيث أدبه وحسن تصرفه ولكن من حيث كونه قادراً
على الأداء. وللديار آبار يجتمع فيها الماء من المطر فإذا نفذ التمس
صاحب الدار من ناظر الأفنية فأمدّه بماء من عين جارية وسواء في
ذلك القريب والغريب ومن لا يثر له استسقى من العين المشاعة.
وكثيراً ما تجعل المطابخ تحت الأرض ولها خرواق في سطح الطريق
ليدخل منها الضوء فتكون سقوفها مساوية لسطح الطريق وكذا
هي مطابخ لندرة غالباً. ولا تخلو كل دار من فسحة صغيرة لقوارير

الزهور ومن هذه الزهور ما لا رائحة له ولا وجود له في بلادنا. وفي الديار الكبيرة ولا سيما التي يتبوأها الإنكليز أجراس صغيرة مدلاة بأسلاك حديد نافذة في الغرف ويتصل بها شرائط من حرير فإذا أراد المخدم إحضار الخادم جبد الشريطة فسمع الخادم صوت الجرس من كل جهات الدار وهذا أوفق من التصفيق باليدين وربما كتبوا على صفحة الباب اقرع الباب أو اطن الجرس وكذا العادة في بلاد الإنكليز ولكن ليس في الأبواب هنا خروق لوضع المكاتب كما في ديار لندرة. أما طريق المدينة فإن الماشي فيها أبداً يصعد ويهبط كحيزوم السفينة في الأمواج غير أن لها درجاً يهون من صعبها ويمكن المشي على حافاتها تحت المطر ولكل طريق حافتان عن اليمين والشمال لممر الناس ومرور الخيل والعجلات في الوسط وقد كانت جميعها سابقاً مبلطة فكانت قرعة العجلات عليها لا تطاق فاقتلعت الإنكليز بلاطها من الوسط وجعلوا بدله تراباً وحصى فقال أهل مالطة أن الإنكليز دأبهم أن يجربوا بلادهم كما حربهم من قبل بأخذهم مدافع النحاس ووضعهم مكانها أخرى من حديد والحق يقال أن فرش الطرق بالتراب والحصى يجعلها في

الصيف مثاراً للنقع وفي الشتاء منافع للوحد وإنما فعلت الإنكليز ذلك مراعاة لرضى بعض الأعيان الذين لهم عواجل فلنقع هؤلاء وحدهم أغمضوا عن نفع العامة وهذا دأبهم من أنهم يراعون خاطر العليّة دون الجمهور والباقي من الحجر على الحافيتين متى تصبه الشمس في الصيف يصير مسدراً. هذا ولما كان أهل مالطة أحرص الناس على ملابسهم وأحذيتهم كان خروجهم في الطرق ولا سيما في الشتاء قليلاً فبقى الطرق دائماً نظيفة فأما في لندرة فإن النساء يخرجن صيفاً وشتاءً ويلبسن نحو قباقيب تقيهن من الوحل فلهذا تكون طرقها وسخة جداً وقد رأيت كثيراً من الإفرنج يعجبون بنظافة طرق مالطة ويفضلونها على كثير من طرق المدن العظيمة بأوروبا غير أن زوايا كل منها ممتلئة قذراً ونجاسة ومنها ما لا يمكن لاثنين أن يمشيا فيه معاً وفي كل زاوية فانوس مركّز على دعائم من حديد يوقد الليل كله ومثل هذه الفوانيس لا يوجد في لندرة وباريس إلا في أضيق الطرق وأرداها وقد بلغني بعد تحرير هذا الكتاب أن أنوار فالتة تستعمل الآن من الغاز. ثم لا يخفى أن الإفرنج دأبهم أن يشتنعوا على العرب والترك أن بلادهم غير نظيفة

الطرق ولا مرتبة الأسواق وقد ملأوا الكتب بذلك ولم أر منهم من مدح مدينة ما إلا أنهم قد أفرطوا في ذلك فإن أكثر هؤلاء يذهب إلى بلادنا مستوفراً ويرقد في الخانات فلا تمكن له مشاهدة ما فيها من الديار الرحيبة والمنازه الفسيحة النظيرة فيتأذى مما عانى ويحمل ذلك على مناكب البلاد جزافاً ويغضُّ النظر عن سيئات بلاده فإن حوانيت أهل الحرف والصنائع في فالتة وغيرها أيضاً متفرقة في جميع أطراف المدينة فرما كان دكان الحداد تحت دار قاض أو مطران ولا تزال أصوات المطارق بالغة مسامعه وكذا الزواني ففي كل طريق هنا ترى منهن جملة حتى قدّام قصري الحاكم والمطران وكثيراً ما يتفق أن صاحب العيلة يستأجر داراً بجانب زانية تكون إذ ذاك غائبة فلا يدري بها حتى إذا تبوأ محلّه أقبلت تجرّ ذيول عهرها فمتى قدمت البحرية سمعت لهم ولهنّ ضجيجاً منكراً ولا تزال تسمع سفلة أهل البلد هنا يغنون في الليالي ويزاطون ولا وازع لهم فهل هذا يعدّ من الترتيب أما أصوات الأجراس من الكنائس فبليّة كبرى وبالجملة فإنه قلما يهنا الإنسان هنا في سكنى دار. ثم أنه ليس في فالتة حمّام منظور يتطهّرون به من نجاستهم فإذا اضطروا إلى كشط الوسخ عن

أبدانهم استحسوا في البحر نعم إنه يوجد محل أطلق عليه لفظ الحَمَّام
ولكنه ليس في صفة الحَمَّامات التي في بلاد المسلمين إذ هو عبارة
عن مغطس فقط من دون تكبيس ولا تكبيس ولا عرق على أنه
غال جداً ونحوه حمامات بلاد الإفرنج غالباً من حيث الكيفية لا من
حيث الغلاء والمتنكزون من المالطين يقلدون مواليهم في اتخاذهم
مغطس من قصدير أو خشب في ديارهم ويدعون أن ذلك أسلم
للحسم وأنظف ولعمري ليس السبب في عدم الحمامات هنا إلا
رداءة الهواء فإن من كان في محل دُفئ وخرج منه مقابلاً للريح لا
يأمن أن يمتن بداء وكنت قد ذكرت يوماً لبعض الأطباء عادتنا على
الحَمَّام وتنغصتُ لفقده فقال لي لو كان عندنا حَمَّامات لما كان من
يستحم فيها وقوله هذا يحتمل معنيين فأما أن يكون قد أراد أن
المالطين لا يستعملون ذلك أو أن الحَمَّام يمت الناس حتى لا يعود
أحد يدخله وهذا دأب هؤلاء في الاعتذار عما لا يوجد في بلادهم
فإنهم يقولون أنه غير نافع أو غير موافق كجواب آخر وقد سألته
عن وجود رفائين للجوخ والशल الكشميري فقال نحن الإفرنج لا
نعنى بهذه الصنائع مع أنهم أعظم الناس اقتصاداً وتوفيراً وأكبرهم

هنا يُرْفَعُ سراويله من دبر ويمشي كذلك من دون رداء يستر رقعته. وليس في هذه المدينة كلها مصطبة يقعد عليها فلا يمكن للإنسان الجلوس إلا في بيته أو في محل قهوة نعم إنه يوجد مصطبة عند قصر الحاكم ولكن لا يقعد عليها إلا الأوباش فإن القعود عند الإنكليز على هذه الصفة عيب وتابعهم المالطيون على هذا ويقال أنه كان في المدينة سابقاً عدة مصاطب فأزالها الإنكليز إلحاقاً لها بلندرة. فأما محال القهوة في فالتة عبارة عن مخازن مظلمة ليس فيها شباك يُطلُّ على البحر أو على حديقة وإذا أطلت الجلوس جاءك الساقى ومسح المائدة قدّامك إشارة إلى أنّه ينتظر غيرك أو كأنه يقول بلسان الحال لقد أبرمت بي فمتى تفارق. ولا يمكن لأحد أن يقعد ناحية البحر ساعة واحدة لأنّها جميعها فذرة ولا يمكن له في المطال المرتفعة الكاشفة على البحر أن يأكل أو يشرب أو يدخن احتراماً لنساء الإنكليز.

وفي شواطئ البحر حيث يعوم الناس مدّة خمسة أشهر لن ترى ركناً أو عرشاً أو خيمة وإنما ينصب السابح حُرّاً وجهه للشمس فيحترق قبل طلوعه من الماء. وفي الحقيقة فإن الإنكليز

جعلوا ماطة خالئة من المنازه والمثابات السارة أصلاً. ومن أعظم أسباب الحظ عند المالطين الذهاب في القوارب ليالي الصيف ليغتسلوا في البحر فتذهب الرجال والنساء معاً ويقضونه هزيعاً من الليل بالسباحة والغناء. والقوارب في مرسى فالتة كثيرة جداً وكلها مصوغ ظريف ولكن ليس فيها مقاعد كقنچ مصر ولا زراي أو زخرفة كقوارب الأستانة إلا أن هذه خطر على راكبها فإنها لحقتها تميد من أدنى شيء. ولقائل أن يقول إن المالطين هم مثل الإنكليز في كونهم لا يلاحظون في لوازمهم سوى مجرد المصلحة بقطع النظر عن الترفه والطلاوة فإن متكأهم ورواشينهم وكراسيهم وقواربهم وسروج خيلهم ليست مجعولة إلا لقضاء الحاجة فقط. وأغرب من ذلك حوانيتهم فإن التاجر لا يزال واقفاً من الصباح إلى المساء وقلاً من كان عنده كرسي له أو للمشتري وفي هذا الأخير خالفوا الإنكليز.

ويقولون للقارب "دعيسة" وكأنه تصغير دعصة الرمل شبهوه بما لاستدارته وصغره وهذا دأب العرب في أنهم يسمون الأشياء الغريبة عنهم بما ألفوه في بلادهم. فإن قلت إذا كان هذا

دأب العرب فمن أين للمالطيين ذلك قلت لا ينكر أحد أن اللغة المالطية هي عربية وأن المسلمين حين استولوا على الجزيرة كما مرّ هم الذين سمّوا هذه الأشياء وإنما لم يقولوا قارباً مع كونها عربية فصيحة لأن في اللغة المالطية أشياء كثيرة عدل بها عن استعمالها الأصلي واستعير لها أسماء مشابهة لها أو مجاورة فيقولون مثلاً للقليل فتيت وللكثير وساق الحصان زامل بالإمالة وهو ما كأنه يطلع من الدواب لنشاطه وللقرية رحل وهو في اللغة مسكن الرجل وما يستصعبه من الأثاث وغير ذلك. ومن ذلك أي الحظ عندهم التماشي أمام قصر الحاكم حين يعزف بالآلات الطرب العسكرية فيذهب إلى هناك جميع المتشبعين المتكيسين فترنو الرجال إلى النساء وتدلّ النساء على الرجال. ومن ذلك الأعياد الكنائسية وهي كثيرة جداً فإن لكل قديس عيداً مختصاً به في زمن مخصوص ومكان معلوم فيرحل إليه عند اقترابه المتلهون ويقضوا ما تيسر لهم من اللذات وسماع الموسيقى ورؤية لعب النار وما أشبه ذلك ولا بد للأوباش في هذه الأعياد أن يسكروا ويفحشوا ما أمكن. ومن ذلك حلبة

السباق وقد تكون في الخيل والحمير والقوارب والسابق يفوز بالخطر.

ومن ذلك زحلوقة لهم يحضرها ألوف من الناس وهي أنهم يربطون خشبة طويلة كصاري المركب إلى سفينة ويدهنونها بما تنزل عنه القدم وينصبون أمامها غرضاً ثم يمشون إليه على تلك الخشبة فمن زلَّ عنها وقع في البحر. ومن ذلك ثلاثة أيام في المرفع ويعرف بالكرنيفال وهي الأحد والاثنين والثلاثاء يلبس فيها الرجل كالمرأة والمرأة كالرجل ويتزيون بهيئات متنوعة وأشكال مختلفة ويُغَطُّون وجوههم بجلود على هيئة الوجه ويطوفون في المدينة حيارى سكارى ويسمون هذا التشكُّل مسكرة وكأنه محرّف عن المسخرة ولا يتحاشون في هذه المدة شيئاً من الخلاعة والقصف والمنكرات يومئذ تغصُّ الطرق بالناس والمراكب فإذا أصبح يوم الأربعاء ذهبوا إلى الكنائس ونثروا الرماد على رؤوسهم إشعاراً بالإنابة، ومن ثم يقال لهذا اليوم أربعاء الرماد وهذا الاسم باق عند الإنكليز مع إلغاء هذه العادة عندهم ومعنى الكرنيفال رفع اللحم أي إزالته ومما جرت به العادة في هذه الأيام أن الحاكم يولم وليمة فاخرة ويدعو إليها

وجوه أهل البلد بتذاكر يرسم فيها بقدمهم بملابس مستخرية
فيلبونه ويستأجرون هذه الثياب من الحوانيت فيقف لهم في غرفة في
قصره وكلّما قدمت عليه عيلة انخنت له فاحتفل بها فإذا انقضى
السلام شرعوا في الرقص وكلّما رقصت النساء قليلاً أخذهن
الرجال إلى المائدة ليأكلن أو ليشربن ما شئن ثم يعدن إلى الرقص
حتى مطلع الفجر فتتفرّق الأصحاب وربما اتخذ بعض جشعي
المالطين من تلك المائدة خبنة وهي ما يحمل من الطعام في الكم
وكنت أذهب إلى تلك الدعوة بزبي المألوف فيخالوني من
الساخرين وكانوا يسألوني هل في بلادكم مثل ذلك فأجيب مغالطاً
إن لم يكن عندنا هذا فخير منه ولعمري قبيح بالرجل الفاضل أن
يُرى راقصاً كالولد. ومن أعظم مواضع الحظ واللذات الملهى وهو
المسمى عندهم بلفظة الثياطر أو الثياطرو وليس في فالتة كلّها سوى
ملهى واحد وجلّ اللاعبين فيه من إيطاليا ولكن ليسوا من الطراز
الأول وسيأتي الكلام بالتفصيل على ذلك إن شاء الله تعالى فإنني
الترمت إيجاز الكلام على هذه الأمور في مالطة ليكون مناسباً
لأحوالها إذ جميع ما فيها إن هو إلا مختصر من بلدان أوروبا والظاهر

أن المسلمين كانوا يطلقون على هذا الموضع اسم الملهى فقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب ما نصه أني فتحت مدينة المغرب ولا أقدر أن أصف ما فيها غير أن فيها أربعة آلاف حمام واثني عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر وأربعة آلاف يهودي يؤدون الجزية وأربعمائة ملهى غير أن هذا القدر كثير على أي مدينة كانت فإن باريس وما أدراك ما باريس لا تحوي إلا ثلاثين ملهى ويحمل أن المراد بالملهى هنا كل موضع يكون للهو فيدخل فيه موضع الحكايات والمشي والاجتماع ونحو ذلك وأما قول بقال ففي القاموس في ب. ق. ل. والبقال لبّاع الأطعمة عامية والصحيح البدال ونحوه قوله في ب. د. ل غير أنه فسر القربق في باب القاف بأنه دكان البقال فليحرر. ومن الغريب أن أحد المشعوذين الطليانين أبدى في ملهى فالتة من التمثيل والتخييل أموراً غريبة ثم أراهم أيضاً منشوراً من البابا بالرخصة له في هذه الحرفة فصدقه كل من رآه فهلاً كان هذا المنشور أيضاً من جملة شعوداته. ومن المباني العظيمة في هذه المدينة الكنائس وهي حسنة البناء متقنة مزخرفة بالنقوش والدمى والتماثيل والصور مزينة بالأرجوان والاسترق

وأدوات الفضة والذهب وفيها عشرون كنيسة على هذا النسق
وأعظمها كنيسة سان جوان وهي مبْلطة كُلُّها بالرخام المنقَّش
المصوَّر عليه صور أعيان مالطة الأقدمين المدفونين فيها وفي صدر
الكنيسة تمثالان للسيد المسيح ولصان جوان رافعاً يده فوق رأسه
(أي رأس السيد المسيح) يعمده وهما من الحجر يراهما الداخل من
الباب أكبر من الرجل الجسيم وبخارج الكنيسة صفحة ساعة يُعلَمُ
منها الساعات والأَيَّام والشهور والسنون وإذا ضُربَ جرسها سمع
صوته كل من في المدينة فيضبطون ساعاتهم عليها وفي هذه الكنائس
من الذهب والفضة والتحف ما يغني جميع صعاليك مالطة ولكل
يوم من الأسبوع بدلة للقسيس خصوصيَّة وقس على ذلك أيام
الآحاد والأعياد والأحوال الطارئة كالزواج والمعموديَّة والموت وفي
الحقيقة فإن كثرة الكنائس الحسنة في جزيرة مالطة على نحسها لما
يُعجب منه وفي كل قرية ترى ثلاث كنائس فأكثر وأول افتخار
المالطيين إنما هو بكثرة كنائسهم إذ ليس عندهم شيء آخر يُتباهى
به والتفاخر صفة قائمة في النفوس وإذا سرت إلى قرية ما متنزهاً
فلا تكاد تصل إلا وتُحَدِّقُ بك جماعة ليرُوكَ كنائسهم وجملة ما

يُصَرَّفُ على الكنائس والقسيسين يبلغ ثلاثين ألف ليرة في العام، ولا يعرفون ضرب الأجراس بالحبال كما يفعل الإنكليز وإنما يصعدون إلى قبة الجرس ويحركون مطرقته باليد بما تنقبض منه النفس ويشمئز الطبع. ومن ذلك مدرسة جامعة يُعَلِّمُ فيها الفنون واللغات وفيها كنتُ أعلِّمُ اللغة العربية إلا أن المالطين يتعلمون كل شيء ما عدا لغتهم وفي مدة الصيف يُعْطَلُ المعلمون نحو ثلاثة أشهر وأجرهم غير ممنون وعند انقضائها يُعَيَّنُ يوم لاجتماع التلامذة ومشائخهم في حجرة في المدرسة وفي الصدر مائدة عليها كتب ثم يقوم أحد المشائخ وهو في الغالب صاحب المعاني والبيان فيلقي على الحاضرين خطبة ثم تُقْرَأُ أسماء من نبغوا في العلم من الطلبة ويعطون من تلك الكتب ما يليق بهم وربما حضر الحاكم بنفسه لهذا ولا بد من أن يعطى لكل معلم دفتر يكتب فيه أسماء الطلبة وما يحصلونه من الفنون ويشترط عليه أن لا يُعَلِّمَ تعليماً مغايراً للديانة الكاثوليكية الرومانية. ومن الغريب أن أهل مالطة مع كون لغتهم فرعاً عن العربية فليس منهم من يحسن قراءتها والتكلم بها وإذا شاء أحد أن يفتح مكتباً بمالطة تمتحنه علماء هذه المدرسة أولاً فإذا رأوه

أهلاً لذلك أعطي رخصته من الديوان فيه وجملة ما يُصرف على هذه المدرسة وعلى مكاتب أخرى في القرى في كل سنة نحو ثلاثة آلاف وثلاثمائة ليرة. ومن ذلك دار كتب موقوفة باللغات الإفرنجية فمن شاء أن يطالع كتاباً منها ذهب إليها واستوعبه وإن كان من الوجوه يحضره إلى منزله وعدة ما فيها ثلاثة وثلاثون ألف سفر وليس فيها من الكتب العربية ما تحته طائل. وفي المدينة أيضاً عدّة حوانيت مشونة بأصناف الكتب ليس فيها خرم ولا نقصان ويمكن أن يقال أن الكتب بأوروبا أرخص ما يكون لا جرم أن المولع عندهم بالعلوم مع سعة ذات اليد لأسعد الناس لأنه إذا شاء أن يتعلّم أي فن كان وجد له فيه شيخاً ولأن الكتب والأدوات اللازمة لذلك الفن حاضرة عتيدة يجدها بأهون سعي ولا يخشى في الكتاب خرماً كما ذكرنا ولا تحريفاً فكل كتبهم مصحّحة ولأن المدارس الوقفية تُعلّم فيها العلوم مجّاناً أو يعطى في مقابلة ذلك شيء زهيد فطالب العلم في مالطة يعطى في الشهر شلّينين ونصفاً وطالب اللغة شلّيناً أحداً ولعمري أن طالب العلم في لغتنا لو لم يصدّه عن المطالعة إلا تعذّر وجود نسخة صحيحة لكفاه ذلك عذراً فضلاً عن نصّبه

وحرمانه وخموله. وفي فالتة سبع مطابع إحداها للميري تُطبعُ فيها الأوامر والنواهي التي تصدر من ديوان الحكم والباقي للأهلين وفيها أيضاً دار لصحف الأخبار الواردة من أوروبا وداران للصرف توضع فيها الأموال ومنارة فيها فانوس كبير لهداية السفن وعدة مكاتب للصبيان والبنات يعلم فيها القراءة والكتابة والحساب والتطريز والخياطة وغير ذلك غير أن الأولاد تغلب عليهم لغتهم وتمنعهم من التكلم بغيرها إذ كانت هي اللغة الغالبة وإلى -الآن- لم يُعلِّم من نساء مالطة من نبغت في المعارف والتأليف فغاية ما يتعلمن إنما هو أن يقرأن بعض كتب كنائسية وقد كان في السابق دار معدة لتلقي النغول وتربيتهم وقد يطلب الدار وبقيت عادة النغول وعادة التبني من اليتامى وفيها ثلاثة مستشفيات أحدها للعسكر والثاني للرجال والثالث للنساء ومن لم يكن لها مأوى تأوي إلى هذا المستشفى وتمكث فيه ما شاءت وبخارجها -أيضاً- أربعة أخرى أحدها للمجانين وأكثر جنون أهل مالطة يكون وسائس في الدين وقد رأيت فيه عجوزاً تهذي وتقول اليوم عيد كما أمر بذلك القسيس والثاني للمرضى من العساكر البحرية والثالث للفقراء والرابع

للطاعين في السن العاجزين عن تحصيل معاشهم الماديين لوداع الدنيا
يداً والمغمضين عن درزها ونعيمها عيناً قد أصبحوا من هذه الحياة
على شفا جرف هار يعتبر بهم اللبيب ويتعظُّ بهم المستهتر في حب
هذه الدنيا الغرور إذ تراهم كالأغرار من الأولاد قد انخبت منهم
القدود لما استوى عندهم داعي الأجل وأظلمت منهم الأبصار بعد
أن ضاء فيهم صبح المشيب وانحلت منهم القوى بعد أن غلت منهم
الأفكار والنهي فثمَّ يقضون ما بقي من ظمأ حياتهم بكان وصار.
وفي فالتة عدَّة فنادق للمسافرين بهيَّة ذات حجرات مفروشة عتيقة
أجرة كلِّ منها في اليوم نصف شلين في الأقل. وفيها من الذكور
أكثر من اثني عشر ألفاً وخمسمائة نفس ومن الإناث أكثر من أحد
عشر ألفاً وثمانمائة وسبعين جملة ذلك أربعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة
وسبعون نفساً ومن القناصل أربعة عشر ومن القسيسين نحو مائتين
وخمسين وسبعة أديار للرهبان والراهبات. وجملة ما في الجزيرة كلِّها
من الكنائس الكبار سبع وسبعون ومن الصغار مائتان وأربع
وأربعون ومن الأديار واحد وعشرون ومن الأطباء مائة وتسعة
وعشرون ومن النوائبة والعناقرية تسعة وأربعون ومن كتاب

الصكوك والعقود مائة وأربعون ومن أصحاب الموسيقى مائة وثلاثة وستون ومن المعلمين في المكاتب مائة واثنان وأربعون ومن المصورين مائة وثلاثة وتسعون ومن المتوظفين في خدمة الميري خمسمائة وواحد وثلاثون ومن المرتب لهم عمريّات ولا شغل لهم ثلاثمائة وستون ومن التجار ستمائة وستة وثلاثون ومن السماسرة مائة واثنان وسبعون ومن أصحاب الخوانيت ألفان وستمائة وأربعون ومن المزارعين ثلاثة آلاف وثلاثمائة وستة وعشرون ومن الفلاحين ثمانية آلاف وسبعمائة وستون ومن صاغة الفضة والذهب مائتان واثنان وثلاثون ومن النجارين ألف ومائتان وثلاثة وثمانون ومن الأساكفة ألفان وأربعمائة ومن الغزالين والغزالات ثمانمائة وأربعون ومن النساجين والنساجات ثلاثة عشر ألفاً وستون ومن الخياطين تسعمائة واثنان وثمانون ومن لفافي ورق التبغ تسعمائة وثلاثون ومن الخدام ثلاثة آلاف ومائة وعشرون ومن أصحاب القوارب ستمائة واثنان وأربعون ومن الساعاتية ستة وعشرون ومن المتعلّمين في المدرسة الجامعة وفي غيرها ثلاثة آلاف وثمانمائة وثلاثة وثلاثون ومن الديار الكبار إحدى وعشرون ألفاً ومائتان واثنان

وستون ومن البيوت الصغار ألفان ومائتان وواحد وسبعون ومن
الحجرات على حدّها ثمانية آلاف وثلاث وأربعون ومن الدكاكين
ثلاثة آلاف وخمسمائة وعشرون ومن المخازن خمسمائة وستون
ومن الشون للقمح خاصة مائة وسبع وعشرون ومن الذين لا عمل
لهم من الأعيان ستة آلاف ومائتان وتسعة وستون ومن العامة نحو
أربعين ألفاً وجملة من يزيد عمرهم على الثمانين سنة سبعمائة وثلاثة
وسبعون وجملة ما يولد فيها في السنة أربعة آلاف وأربعمائة وجملة
أهل الجزيرة نحو مائة ألف نفس منهم أحد عشر ألفاً وخمسون من
الإنكليز وسبعمائة وسبعون من الغرباء.

كثيرون إن عدّوا قليلون إن رجوا

فهم دون عد العشر أن تنو خيرا

وجملة ما يرد إليها في السنة من المسافرين ثمانية آلاف ومائتان
وسنة عشر وما يصدر عنها تسعة آلاف وخمسمائة وثلاثون. وفي

فألثة سوق تباع فيها سائر أصناف المأكول فتجد فيها جميع أنواع السمك واللحم كالبقر والضأن والعجل والدجاج والطيء أما السمك فإنه لذيد جداً وأما اللحم فأطيب أنواعه الخروف الصغير يذبحونه وهو دون ثلاثة أشهر فيكون ألد من لحم الطير وهذه الطرفة النفيسة لا وجود لها في لندرة ولا في باريس أما الطير فإنه قليل جداً ولا عيب على من يشتري نصف دجاجة بل ربعها أو جناحيها أو رأسها بل مصادريها كل ذلك من اقتصادهم فإنهم أعظم الخلق خيرة به ولا عيب أيضاً على من يذهب بنفسه ويشتري مؤنة يومه وإن يكن قاضياً بل النساء السيدات يفعلن ذلك أيضاً ومتى اشترت شيئاً تُحمّله أحد الأولاد الذين مهنتهم الحمل وهم كثيرون وكذلك لا عيب على من يشتري البقول والحليب ما قيمته فلس واحد فقط وليس في المدينة حمير فارهة للركوب كحمير مصر وإنما يذهب الناس في عواجل وهي ليست كعواجل الإفرنج وليس لسائقها مقعد فيها وإنما يمشي بجانبها على رجلية الحافيتين ومتى رأى أصحابها أحداً مقبلاً ازدحموا عليه ولا ازدحام حمارة مصر. وليس في مالطة كلُّها مصانع للساعات أو الزجاج أو الأدوات

الحريّة والأقمشة وغيرها فأشهر الصنائع عندهم النجارة والخيطة والسكافة والحدادة والنساجة والصياغة وأخصّ أعمال النجارين الكراسي والمتكات والموائد والخزائن والصناديق والأصونة ونحو ذلك وقد يحسنون أيضاً إنشاء المراكب وعمل الحدادة مقصور على سرر النوم وما يلزم للبناء وعمل الصياغة من الذهب إنما هو الشنوف والخواتم والسلاسل والأسورة وأشكال طيور وزهور والأبازيم والإبر ونحوها ومن الفضة الملاعق والمغارف وأباريق القهوة والشاي والأقداح والأطباق والمسارج وأوعية السكر ونحوه فأما النساجة فلا تتعدّى شقق الفوط وأغطية الفرش وقلوع المراكب ومن هذا الأخير يبعث إلى بلاد المسلمين مقدار جزيل وليس من أهل هذه الصنائع من يصل إلى درجة الإنكليز والفرنسيين في الجودة والإتقان إلا أن عمل المالطية وثيق متين فإذا اشترت مثلاً حذاء أو ثوباً مخيطاً بقي مدّة لا يحتاج إلى تصليح أما عمل الإنكليز منها فحسن في الظاهر لكنه لا يبقى على الاستعمال وعمل الفرنسيين ما بينهما ومن الرسوم الحسنة في مالطة أنه إذا أراد أحد شراء شيء من الفضة والذهب ذهب إلى قِيم الصنعة وسأله عن

قيمته فيزنه ويكتب له تذكرة بذلك فأما الجعل فوكول إلى التراضي
والغالب في مشترى الجواهر أن يكون أنقص من الثمين. ومما يكره
بالمالطة كثرة الشحاذين وإلحاحهم بالسؤال حتى إنهم يقرعون
الأبواب وقت الغداء ويجرون مع الماشي ولا يبرحون مستجدين
حتى يفوزوا بشيء وهم يرون أن حقاً على الموسرين أن يواسوهم
بأموالهم وإذا أعطيت أحدهم مرة فكأنما قد دُونَ ذلك عليك في
الدستور فأينما يرك يلزمك وأول كلامهم في الاجتداء قولهم "عن
روح مسيرك" أي أبيك أو "عن أرواح البوركاتوريو" أي المطهر
وكان بعضهم يقول لي عن روح المحمد تيعك والاجتداء في باريس
ولندرة ممنوع. ومما يكره أيضاً ما عدا طنطنة أجراس الكنائس
المتابعة أصوات الباعة الذين يطوفون في الأسواق لبيع الفاكهة
والبقول والسمك والحليب والماء فإن فغر أفواههم ومط أصواتهم
وفظاعة لحنهم على اختلاف معنييه لمّا يستعاذ منه. كيف لا وهم
يقولون للتفاح تفيح وللرمان رمين وللبطيخ بتيخ (بالحاء المهملة)
ولللخيار حيار (بالحاء المهملة أيضاً) وللإجاص لنجاس وللدلاع دليع
ولللخبز حبس وللماء للما وللخوخ حوخ (بالحائين المهملتين) وما

أشبه ذلك. فلا يمكن للعربي استماع ذلك ولا سيما إذا كان في
اليوم مراراً من أشخاص ذوي شراسة وفضاظة. وعلى ذكر الخوخ
يحسن هنا إيراد ما قاله بعض الأدباء وفي الناس من يبدّل الخاء
المعجمة حاء مهملة فيقول في خوخ حوح وفي خلخال حلحال
وهي مستحسنة من الغلمان والجواري وكذلك إبدال السين ثاء
وعليه قول الشاعر:

وأهيف كاهلال شكوت وجدي إليه بحسنه وأطلت بشي
وقلت له فدتك النفس مني تحز في الثواب فقال بث

قلت هذه اللفظة ذكرها صاحب القاموس بالضم فتقال وبس
بمعنى حسب أو هو مسترذل وأهل مالطة يبدلون سينها زايا
ويكسرون أولها وأهل تونس وطرابلس لا يعرفونها ويستعملون بدلها
لفظة بركة وهي قبيحة جداً. وقلت أنا في مليحة مالطية.

بدت في الثياب السود والوجه زاهر

وماست بقد ينجل الغصن الغضا

لها منطق عذب على قبح لحنه

وفي حسن من قواه عن لحنه أغضا

إلا أن هؤلاء الباعة ليسوا من هذا الطراز لا جرم أن النطق
يؤثر في ذى الذوق السليم أكثر من الحسن وأنه من خصوصيات
الإنسان والحسن يوجد في جميع المخلوقات. ولقائل أن يقول إن
النظر إلى ذى جمال رائع بغته يدهش له ويتأثر به أكثر من استماع
متكلم بليغ من أول وهلة قلنا هذا على اعتقاد الناطقية فيه فلو
فرضنا أن الناظر يرى جميلاً معتقداً أنه أحرص وقيحاً منطقيّاً لتأثر
بالباني دون الأول. وأشد ما يكن في هذه الجزيرة هو أن الأوباش
والأوغاد يترددون حيث تتردد الخاصة وذوو الفضل فقلماً رأيت
مكاناً خالياً منهم وإذا لقوا أحداً من الوجوه سلقوه بالسنتهم ولمزوه
فعلى الكريم أن يتجنب محضرهم ويتباعد عن مثابهم وأسوأ من
ذلك أن القضاة يعتبرون هؤلاء الأنجاس عند التّحقيق والتخاصم
اعتبار الخيرين من الناس وهذا الذى جرأهم على التماذي في القبائح
وهؤلاء الأراذل إذا شربوا قدحاً واحداً من الخمر طافوا الأسواق

وهم زائطون ضاجون يظهرون بذلك طاقتهم على الإنفاق وفي ليالي
الآحاد والأعياد تغصُّ بهم المسالك فلا يطيق أحد سماع غنائهم
ولغظهم.

هذا وكثيراً ما ترى الملاحين والبحرين سكارى في الأسواق
حيارى وإذا صرعتهم الخمر في الطريق يمرُّ الناس بهم ولا يبالون
وربما سرق منهم وهم على هذه الحالة ما بقي لهم من الحانة أو
جرّدوا عن ثيابهم وهم لا يشعرون وربما تقيأ أحدهم ثم عاد إلى
الشرب إلا أن منزلة السكارى من عسكر المدينة أجلّ من
العسكر البحرية فإن أولئك يجرون إلى مقامهم جريراً وهؤلاء
يغادرون صرعى عرضة لناهين. ومما يحمد في مالطة عدم العقارب
والحيّات وسائر الهوام المضرة وإن وجدت فلا سُمَّ لها وأهل مالطة
يزعمون أن ذلك من كرامة مار بولس حين ألقى الثعبان من يده في
النار وأخبرني ثقة بأن الحيات في جزيرة كريد أيضاً لا سُمَّ لها وأهل
إيطاليا يقولون إن مار بولس أزال السم من أفواه الحيات فانتقل إلى
أفواه أهل مالطة وزعم بعض من الإنكليز أن مار بولس لم يمر بمالطة
وإنما كان مروره بمالطية إلا أنه يكثر عندهم البق والذباب وهذا

يوسخ كل شيء أبيض والعناكب تلقي لعابها بين كل شيئين أما
العثة فإنّها لا تلحس الصوف لحساً كما يقول صاحب القاموس
وإنّما تسترطه استراطاً وفي معنى العناكب قلت:

غدا بيّتي كثير الفرش لما

تلهل فيه نسج العنكبوت

فلا عجب إذا ما قلت يوماً

لكيد الناس أني ذو بيوت

فصل في

عادات المالطيين وأحوالهم

وأخلاقهم وأطوارهم

عادة أهل مالطة المتشبعين في اللباس كعادة الإفرنج إلا أن نساءهم يلبسن وشاحاً من الحرير الأسود وعلى رؤوسهن غطاءً منه أيضاً، من دون برنيطة وأقبح شيء في الصيف رؤية هذه الثياب السود وقد يحاكي بعضهنّ نساء الإنكليز في الزي ولكن متى ذهبن إلى الكنيسة لبسن زيهن الأصلي توهم أن اللون الأسود أليق بالكنيسة وأولى بالقنوت وهو كوههم الجهلة من نصارى الشام أن من يلبس سراويل فوق ثيابه لا يليق به أن يتقدّم إلى محراب

الكنيسة. أما أهل القرى فإن الرجال منهم يتقبون آذانهم ويتقرطون بأقراط من الذهب ويرخون سوافل مجمعة من أفوادهم إلى طلاهم وهاتان صفتان من صفات الإناث ويلبسون طرايش مختلفة الألوان مسدلة على أكتافهم وهي شبيهة بالأجربة ويمشون حفاة ويتحزّمون بأحزمة ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب ويجعل أزرار صدريته منه أو من الفضة ويحمل سترته على كتفه ويمشي حافياً مشية المفراح البطر وأن الجرار منهم أو الخمار ونحوهما ليخرج في الأعياد وفي أصابعه عشرة خواتم من الذهب ومثلها في سلسلة ساعته وفي صدريته أزرار كثيرة من الذهب أو الفضة أما النساء فإن من كان لها حذاء لا تلبسه إلا إذا جاءت المدينة وهي معجبة به حتى إذا خرجت منها تأبطته وجميع الأعيان في مالطة يخرجون في الصيف من دون أردية تستر أديارهم خلافاً لعادة الإفرنج في أوروبا والمتكيس الغيساني منهم هو الذي يزلق سراويله على فخذه وإيتيه حتى لا يعود يمكنه التقاط شيء من الأرض فإذا صعد في درج ونحوه استعمل الحيلة حتى لا تنقد من دبر وأكثرهم يُفخّم فخذه ومؤخره بحشو في السراويل ويستر كل عظم ناتئ في بدنه وييدي ما

ينبغي أن يُستَرَّ فإذا مشى أحدهم على هذه الصفة نظر إلى عطفيه كالزوزك وإلى سراويله وحذائه معجباً بما لديه. وللنساء زهو وعجب إذا مشين أكثر من زهو الرجال فترى المرأة تخطو كالعروس المزفوفة إلى بعلها وهي ممسكة بطرف الوشاح باليد اليسرى وبطرف غطاء رأسها باليمن فتكون على هذه الحالة أشغل من ذات النحيين فمتى أوين إلى بيوتهن لبسن أخلق ما عندهن من الثياب وسواء في ذلك الفقراء والأغنياء والرجال والنساء وهذا هو أحد الأسباب التي حبيت المالطين تجنب المعاشرة والمخالطة، ربما عُدَّتْ المرأة التي تبقى في منزلها بلباس حسن من المتبرجات وإذا زرت أحدهم فلا يستحي أن يقول مهلاً فإن زوجتي تُبدِّلُ ثيابها لتحضر بين يديك ومنهن من تبقى في بيتها بغير حذاء ثم إذا خرجت في يوم الأحد لبست جوارب من حرير وكفوفاً منه وتبهرجت غاية ما يمكن فإن المالطين يتفخلون في الأعياد كل التفخّل بخلاف الإنكليز هنا فإنهم يبقون على حالة واحدة. وفي الجملة فإنَّهم هؤلاء الناس كلّهم مصروف في التفاخر بالرياش وهو شأن حديث النعمة. ومتى كانت إحدى نساء مالطة حاملاً مشّت الخيلاء ورفعت بطنها ليراها

كل من مرَّ بها ومتى أبصرت ذا شهوة رسمت شكل الصليب على
بطنها تعوداً من سريان الشهوة إلى الجنين وإذا شئت في الطريق
رائحة طيبخ وتوحّمت عليه بعثت تستهدي منه. أما حُلِّي النساء
فالذهب غالباً للأغنياء والفضّة للفقراء إلا أنّه قلّ أن ترى امرأة من
دون حُلِّي من ذهب وأصناف من الحنّى الشنوف ويقولون لها
مسالت وفي لغة أهل الغرب مصالت والأسورة يلبسها فوق
الأكمام والإبر والخواتم والسلاسل والساعات ويندر جداً تحليهن
بالجواهر النفيسة وإنما تتحلّى بها الخواتين في الرقص والولائم وقد
يجزى عنها الجزع وفي الجملة فليس لنساء مالطة ولا لنساء الإفرنج
جميعاً كثير من الحلي كما لنساء مصر والشام وإنّما إعجابهن
مقصور على نظافة الثياب واتخاذها بحسب الزي وكما أن لباس
رجال الإفرنج لا يخلو من إخلال بالحياء كذلك كان لباس نسائهم
أدعى إلى الحشمة والتصاوان من لباس نسائنا فأما تغيير الزي عندهم
فإنه نافع لأصحاب التجارة ومضر بعمامة الناس فإنه يقضي بمصاريف
حديثة غير ضروريّة ومنشأ هذا التغيير يكون في باريس فتطبع
صورته على أوراق وترسل إلى جميع البلاد وهذا دأب الناس من

أنهم إذا رغبوا عن رذيلة أقبلوا على غيرها فإن الإفرنج لما رغبوا عن المزرکش والمرکش من الثياب وعدوها من دأب الصبيان أولعوا بتغيير الشكل هذا ولما كان لباس الإفرنج في الشتاء لا يتعدى اللون الأسود من الجوخ وغيره وفي الصيف لا يتعدى الثياب البيض لم يكن لأسواقهم ومواسمهم بهجة وليس ما تسرُّ رؤيته إلا ملابس العسكر وبعض النساء ولا شك أن حب الألوان الزاهية طبعي لأننا نراه في الأولاد وهم يقولون إن الميل إليه من طبع الهمج وإنما ميلهم إلى الألوان مقصور على فرش ديارهم وأثاثها والحق يقال إن ملابس الإفرنج أوفق للعمل وأدعى إلى قلة المصروف فإنها ما عدا كونها مزينة وهو أصل في الاقتصاد فهي عارية عن كلفة الرقم والوشى وربما كانت أدعى إلى النظافة أيضاً. ومن عادة الإنكليز هنا الإكثار من الثياب البيض والإقلال من الجوخ ونحوه فإن الغني منهم لا يكون له أكثر من ثلاث جبات أو أربع ولكن قد يكون له ستون قميصاً وعشرون سروالاً من الكتان وعشرون ملاءة للفرش وقس على ذلك. وقد رأيت كثيراً من الأعيان هنا لهم جيب قد تلبّد على أزيائها الوسخ والعرق ولا سيما أن منهم لمن يرخي شعر رأسه حتى

يصل إلى قذاله فتراه إذا نزع برنيطته تتطاير هبريته على كتفيه ومع ذلك فهم يخلقون شواربهم بدعوى النظافة ومن الإنكليز من يلبس كل يوم قميصاً ويخلق في كل صباح وربما فعل ذلك في النهار مرتين وذلك مطرد سواء كانوا في البر أو البحر ومنهم من يجعل صدر القميص أو طوقه وأطراف كميّه منفصلة عنه فيغيرها في كل يوم ومما يحمد عند الإفرنج استعمال النشا في الثياب البيض حين تغسل فإنّها تأتي بها جديدة والغسّالات في مالطة لا يغسلن إلا بالماء البارد فإن وضع اليد في الماء السخن ومقابلة الريح بعده يعقب ضرراً وصابونهم أحسن من صابون فرنسا ودونهما صابون الإنكليز وعندي أن أحسن صابون في بلاد أوروبا هو صابون قسطنطينية في إسبانيا والظاهر أنه من صنعة العرب فإن أهل تونس لا يزالون يصنعون شيئاً منه على لونه وهيئته ولكن شتان ما بينهما وأجرة غسل القميص بمالطة صلدي واحد وفي باريس ثلاثة وفي لندرة أربعة أو خمسة. أما عادة المالطيين في الأكل فللموسرين الشوربة في الغداء واللحم والخضر والخمر وفي العشاء السمك والسلطة وأفخر شيء عندهم لحم الخنزير إلا أنّهم لا يكثرّون منه ومن غيره كذا

يكثرون من أكل الخبز بخلاف عادة الإنكليز أما الفقراء فإن أحدهم
ليأكل رطلاً من الخبز من أرطالهم بخمس حبات من الزيتون أو
بقطعة من الجبن أو بصحناة والرطل المالطي هو نحو رطلين من
أرطال مصر وثمنه نحو قرش، ولهذا كان المالطيون جميعاً كثيري
اللهج بذكر الخبز فإذا زارك أحد مثلاً وسألته عن أهله قال لك
كلهم طيبون ويأكلون الخبز أو كأن يقول الطيب هو من يأكل
الخبز وإذا أردت أن تشتري شيئاً من أحد التجار ولم توفه ثمنه قال
لك أنا قائم بمؤنة عيلة تأكل الخبز وإذا رأيت أحداً يأكل بعيداً عنك
رفع إليك ما في يده وقال أك يعجبك أي إن يك يعجبك وإن كان
يعلم أن اقترابك منه محال ثم لا يخفى أن خبز الإفرنج يكون كبيراً
جاهضاً يقطعونه بالسكين والحكمة في ذلك الاقتصاد فإن الأكل إذا
قطع منه شيئاً وأبقى منه ما أبقى فلا يكون الحرص على الباقي عيباً،
وربما جيء بالفضلة منه إلى المائدة مرّات بخلاف عادة الشرقيين فإن
الرغيف إذا قطع منه شيء فلا يؤتى به إلى السفرة وهو ناقص فذلك
يُعدُّ لؤماً وبخلاً غير أن جعل الرغيف كبيراً يوجب عدم نضج لبه
فخبز أهل مالطة يكاد له وهو الجزء الأكبر منه ينعصر فلا يمكن

أكله إلا بعد يوم وهو أردأ خبز في بلاد الإفرنج فإنه ما عدا كونه معجوناً بالأرجل حامض وغير مريء غير أنه فيما أظن ليس مخلوطاً بأجزاء كثيرة كخبز الإنكليز. وعندهم نوع من الخبز مستدير مثل خبزنا يسمونه الفطائر ويأكلونه على نوع التفكه وقد سألت عن سبب قلته وعدم بيعه في جميع الحوانيت فقالوا إنه موجب لزيادة المصروف لطيبته وهم إذا جاعوا أكلوا منه ما يكسر الجوع فقط. وعامة المالطين يطبخون الدم ويستبقون إلى أكله وكنا إذا أردنا أن نذبح دجاجة أخذ الذابح دمها وهو لنا من الشاكرين وهم وجميع الإفرنج يأكلون السلاحف البحرية وحيوانات أخرى مما نتقز نحن منه. وقد بلغني أن من المالطين من إذا فجع بشيء فجأة أكل فأراً أو ضفدعاً لإزالة الدهشة وكيف كان فإن أحسن الفلاحين بمالطة يعرف من أنواع الطبخ ما لا يعرفه أكبر تاجر في بلاد الإنكليز فإنهم يطبخون اللحم مع جميع البقول والغالب أن الإفرنج لا نظافة لهم في الطبخ من حيث كانت خدأماهم أبداً مكشوفات الرؤوس فيتناثر شعرهن في الطبخ ولأنهم قليلاً ما يبيضون آنية الطبخ حتى إن هذه الصنعة في مالطة تكاد أن تعد من المفقود وأكثر آنية الطبخ عند

الإنكليز من الحديد وهو أسلم عاقبة وأهل مالطة مثل غيرهم من
الإفرنج في كونهم يأكلون المخنوق وزادوا عليهم في أكلهم الميتة من
الدجاج ونحوها وإذا دعوت أحداً منهم إلى مأدبة لم يكن منه في
خلال التهامه ما بين يديه إلا الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل وعلى
ذلك قولي:

لثام إذا ما زرهم في بيوتهم

كرام إذا زاروك مأمكن اللحس

ولو وسعت أفواههم غير ما بها

لكان لكل بين أنيابه فاس

وقلت أيضاً:

لجاري ثغر للهم القرى

وذم الورى منتهى حده

فلا شيء أسهل من فتحه

ولا شيء أصعب من سده

وكلهم يأكلون الثوم والبصل نيئاً فلا تزال رائحة أفواههم
منتشرة. أما مراقدهم فإنهم يرقدون غالباً على سررٍ من حديد
والمتنكلزون منهم يتخذون في الصيف سريراً منه وفي الشتاء من
الخشب وفرشهم متعددة وثيرة وقد سمعت أن غير الأغنياء يتخذون
فرشاً عالية ولكن لا يرقدون عليها وإنما ينضدونها للمفاخرة
والمباهاة والأطباء هنا يقولون إن الرقود على فرش القطن مضعف
للجسم وإن جبل الليف أو التبن إذا نفش كان خيراً منه وفرش
الأغنياء من الصوف. وعامة المالطين يجعلون أقدارهم في وعاء تحت
السريـر فلا طاقة لأحد على أن يدخل مراقدهم في الصباح ولا بد
من أن يرقد الرجل مع زوجته وإن تقادم عليهما الزواج وهما فيه
وأروحا فأما الأوباش والسفلة فتراهم راقدين في الهاجرة على
حافات الطرق كباً على وجوههم وقد جاء في الحديث نوم
للشياطين على وجوههم وإذا زرت موسراً منهم بادر إلى أن يريك
ما عنده من الفرش والأثاث وقبل كل شيء يريك فراشه ولم تجر
العادة عندهم أن يتخذوا فرشاً للزائرين كما في بلادنا. ومما حُرِّمَ

منه أهل مالطة من أسباب الترفه والاستراحة الاستواء على الأرائك
والزراي الوثيرة فلا يقعدون إلا على الكراسي نعم إنهم يتخذون
متكآت من خشب ولكن من دون ثمرقة عليها ولا حشية وناهيك
عن يقعد يومه كله على كرسي خارج منزله أو يظل واقفاً كالتجار
ثم يأتي منزله ليقعد على كرسي فكأنما لسان حالهم يقول ما قال أبو
نواس:

وداويني بالتي كانت هي الداء.

أو ما قاله الأعشى:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها

أو ما قاله ابن دريد في مقصورته:

حيناً هي الداء وأحياناً بها من دائها إذا يهيج يشفى

أو ما قاله البحتري:

تداويت من ليلي بليلى في الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

فائدة يحسن استطرادها هنا وهي "إن مداواة الشيء بنظيره لا بنقيضه ليس من مخترعات أطباء أوروبا كما شاع فقد ذكر العلامة الدميري في كتاب حياة الحيوان عند ذكر النحل ما نصه روى البخاري ومسلم والترمذي عن أبي سعد الخدري رضي الله عنهم قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إن أخي استطلق بطنه فقال اسقه عسلاً فسقاه ثم جاءه فقال يا رسول الله أني سقيته عسلاً فلم يزد إلا استطلاقاً فقال عليه السلام اسقه عسلاً ثم جاء الثانية والثالثة والرابعة فقال عليه السلام اسقه عسلاً فقال قد سقيته فلم يزد إلا استطلاقاً فقال صلى الله عليه وسلم اسقه عسلاً صدق الله وكذب بطن أخيك فسقاه فبرئ" قال الدميري "اعلم أنه قد اجتمعت الأطباء في مثل هذا العلاج على أن تترك الطبيعة وفعلها فإن احتاجت إلى معين على الإسهال أعينت ما دامت القوة باقية وأما حبسها فضرر عندهم واستعجال مرض أهـ. أما عادتهم في الزواج فهو أن يعاشر الرجل المرأة قبل أن يتزوجها مدة طويلة وربما

أقام على ذلك ثلاث سنين فأكثر. وعندي أن الزواج من دون مشاهدة البنت ومعرفة أحوالها من أضر ما يكون ولا سيما عند النصارى لعدم إباحة الطلاق عندهم غير أن طول العشرة أيضاً لاخير فيه لأن البنت لا تزال مع خطيبها على أحسن الأخلاق حتى إذا تزوجت وعرفت أن لا فراق تخلقت بالأخلاق التي تعجبها ولا يخفى أن النساء في بلاد الإفرنج هن اللواتي يمهرن الرجال فالأغنياء من المالطين يعطون الزوج نحو مائتي ليرة والذين هم من الوسط يؤثثون له منزله من فرش وكراسي وموائد وآلات الطبخ وينقدونه شيئاً من الدراهم والفلاحون يعطونه دجاجاً وبيضاً ونحو ذلك وعلى الزوج أن يهادي حماته بأحذية. وعندي أن لكل من الغربيين الذين يمهرن الزوج ومن الشرقيين الذين يمهرن المرأة وجهاً وذلك أن الشرقيين ينهمون على الزواج وهم غير محنكين ولا مادة لهم فيحتاج أبو البنت إلى أن يأخذ من الزوج مهراً ثقة بأنه قادر على القيام بما تعرض له ولأن الرجال هم قوامون على النساء. أما الإفرنج فلأن رجالهم غالباً يتحاشون الزواج لما يعقبه من التكاليف الشاقة لأن مؤنتهم غالية ونساءهم متشبهات بالرجال أخلاقاً

ولا استغنائهم عنه بكثرة المواجهات فوجب على المرأة في هذه الحال أن تساعد الرجل. وأهل مالطة أشد الخلق تهافتاً على الزواج فإن الرجل منهم ليتزوج وكسبه في اليوم قرشان وهما لا يشبعانه خبزاً وإداماً وإنما يثق بأن زوجته تساعد على الشغل وتكسب مثله. وآفة نسائهم حسن الخلق دون حسن الخلق فإن المرأة تجري وراء من به صباحة دون مبالاة بالعواقب فلا يهمهما كون الرجل فقيراً أو جاهلاً أو شريراً غير أن النساء هنا لا يحترمن أزواجهن فكثيراً ما تعارض المرأة زوجها وتخطئه وتسفهه بحضرة الناس وكلهن إذا تكلمن يرفعن أصواتهن إلى حد يبقى الغريب عنده مبهوتاً وكانت عادهن في القدم أن لا يتبرجن للشبان ولا يخطرن في الطرق ولا يتعلمن القراءة والكتابة ومتى خطبن احتجن عن الأخطاب وربما كان الرجل يخطب بنتاً بواسطة أمه وأخته من دون أن يراها أما الآن فقد تخلقن بأخلاق نساء الإنكليز في مخالطة الرجال ومماشاقتهم والذهاب معهم إلى المراقص والملاهي وكثيراً ما تهرب البنت من حجر والديها وتمكث مع من تقوى وكثير من النساء الغنيات الطاعنات في السن يتزوجن الفتيان البطالين فيمكث الرجل مع

زوجته طاعماً كاسياً والذي عليه حكمة النساء هنا إيثار الأقارب على الزوج فإنهن يقلن أن الزوج إذا مات يُعَوَّضُ بمثله، ولا كذلك الأقارب وهنَّ كنساء الإنكليز في أنهن لا يتزوجن إلا من كان في سنهن إلا أنهن يخالفنهن في كونهن يتزوجن على صغر وإذا مشى الرجل مع زوجته مشياً متحاذيين لا متماسكين بالأذرع كالإفرنج إذ لا بد للمرأة أن تمسك ثيابها كما ذكرنا آنفاً. وكثيراً ما يخرج الرجال وحدهم ويغادرون نساءهم في البيوت. وأكثر أهل الحانات بمالطة متزوج واللبيب منهم من يتزوج حسناء لتسقي الشُّرْبَ وتنادمهم فيجتمع عندها من العساكر البحرية والبرية زمر شتى. والفجار من أهل مالطة الذين دأبهم كسب المال بأي وجه كان يتظاهرون بأنهم طالبون للإحصان حتى إذا حصلوا على المهر فروا به إلى البلاد البعيدة ثم إن المتعة أو التسري أمر مستفيض عند جميع أهل مالطة وقد تترك المرأة المتزوجة بعلها وتهوي في أثر من تهوى وكذا الرجال وأعرف كثيراً من العيال قد فارق منهم الزوج زوجته وأقام مع أخرى وأقامت هي مع آخر وتسرى أبوه، بنساء وأقامت بناته مع رجال أُرْ صرن بنايا زالبيايا في هذه الجزيرة لسن ذوات

ثروة ولا جمال رائع إلا ما ندر فلا تجد لإحداهن داراً على حدتها أو خادماً لكنهن في الغالب غير وقحات ولا متهافتات على الرجال بل هن لعمرى أصون لساناً من المتزوجات وأكثر ماء وجه إذ لا يحدقن في الرجال كالمتروجات ولا ينتقدن السحنة والزى ولا يتشبثن مثلهن بالنميمة ويترددن على الكنائس كثيراً وليس منهن من تريد أن تموت في الذنوب كما هي عبارتهن وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التي في حجرهن أو يُقْبِلْنَهَا تَأْدَباً وتورعاً. وفي الجملة فإن أهل مالطة جميعاً رجالاً ونساءً يغلب عليهم الشبق والسفاح. أما عادتهم في آداب الجنائز فكعادة الإفرنج في أنهم لا يقيمون المآتم على الميت فلا تعرف أن أحداً من الأهلين مات إلا من صحف الأخبار وهي عادة حميدة فإن العويل والنحيب فضلاً عن كونهما لا يحيان مائتاً ولا يردان فائتاً أو كما قال الشاعر: ولم يرجع الموتى حنين المآتم.. يلقيان الهم والرعب في قلوب السامعين وإنما يلبسون الحداد على الميت مدة طويلة ويدفنونه بعد أربع وعشرين ساعة وربما أرسلت الجيران إلى أهل الميت وليمة كما في بر الشام أما عليّة الإنكليز هنا فلا يدفنون الميت إلا بعد أسبوع في

الأقل كما في بلادهم وإذا مات لأحد المالطين طفل صغير أقيمت عليه الأصحاب تهنئه قائلين نفرح لك بالجنة وميت ولد لهم ولد وضعوا تحته التبن ليكون سقوطه عليه تشبيهاً بالمسيح وإذا مات أحد من ضباط العساكر شيعت جنازته وآلات الموسيقى معزوف بها وراءها والجند مصاحبة لها فإذا فرغوا من دفن الميت أطلقوا البنادق دفعة واحدة إشارة إلى أنه مات بعز دولته وسلطانه. أما خلقُ المالطين فالغالب عليهم السمرة والربعية في القوام وسواد الشعر والعيون وغلظ الحواجب وشدة البنية وهم في الغالب أجمل من النساء وكثير من النساء هنا لهن شوارب أو عوارض أو عنافق ومنهن من تحلقها ومن الإفرنج من يستحب ذلك فيهن. وقد اسلفت لك زهوهن وعجبهن بما يتحلين به من اللباس والحلي. أما أخلاقهم فالغالب على أعيانهم لين الجانب والبشاشة فإذا سألت أحداً منهم عن شيء أجابك وهو باش بك مستأنس إليك. ومن طبعهم جميعاً الكدح والتدبير والاقتصاد فلا يتحملون ضنك العيش محافظة على عادات قديمة ضارة. ولا يتجشم أحدهم استخدام نفر أظهر لشأنه ورفعته ولا النفقات الزائدة في الأعياد والزواج ولا تتقلد

النساء الأغنياء منهم قلائد من الألباس وغيره وأن الماحد منهم يزور صاحبه بدون احتفال والغني يذهب إلى السوق صباحاً ويشترى مؤنة يومه وأن الماحدة تزور صاحبته ولا تلهي إحداها عن الشغل وذلك بأن تأخذ معها شيئاً تشتغل به وهي التي تقوم بتدبير البيت فلا تكلُّ أموره إلى الخادمة وأكبرهم من عنده خادم وخادمة وقد شاهدت رئيس أطباء المستشفى غير مرة ينصب الحبال على سطحه وينشر عليها الثياب المغسولة قطعة قطعة ومتى نشفت الثياب حلوا الحبال ووضعوها في محل مصون ورأيت أيضاً بعض القناصل ينصب رأيته والفقراء منهم لا يوقدون سراجاً في الليالي المقمرة وأكثر الرجال يسلمون مصروفهم ليد نسائهم حتى أنهم يحتاجون بعدها إلى أن يطلبوا ثمن التبغ ونحوه وجميع نسائهم مقتصدات ونشيطات إلى العمل وقلٌ منهن من تتعاطى التجارة.

ومن طبعهم جملة وتفصيلاً الفضول والتلهي بالإسفاف من القول والعمل فإذا أكب أحد مثلاً لالتقاط شيء من الأرض ازدحمت عليه زمر ولا يزال أحدهم يجري من جهة وآخر من أخرى حتى تغص بهم الطريق ولا يبرحون ذاكرين للشيء يحدث

أياماً حتى يجدُ غيره ومتى جرى أمر عرفت أصله ومبدأه وغايته من الجائين والذاهبين ولا بد لكلٍ من طغامهم^(*) أن يقص قبل رقوده كل ما جرى له أثناء النهار وربما أخبر به غير مرة وزور ورقش حتى يخال نفسه بعد ذلك صادقاً وأن يتطلع وهو سائر في الطريق إلى كل من يمر به فتراه كأنما يسلم على الناس ذات اليمين وذات الشمال وكثير منهم دأبهم الحضور في المحكمة لاستماع الدعاوى فإذا خرجوا بثوها في كل موضع ولا يمكن أن ينقلوا حديثاً إلا ويريدون فيه فإذا ألم بعين إنسان قذى قال إنه عمي ويدهون الرجل بأن يقولوا له قد رأينا زوجتك تنظر من الشباك أو تحدث فلاناً أو فلانة ويقولون للمرأة في حق زوجها مثل ذلك وإذا اشترت من أحدهم شيئاً يخبر أهلك به ومتى رأوا غريباً نظروا إليه متفرسين وتنصتوا لاستماع كلامه ليعرفوا بأي لغة يتكلم ويصفون حاله في وجهه بأن يقول أحدهم للآخر "هذا الرجل من بلد كذا وقد أطلال المكث هنا ولعله لا يمكث بعد فإنه كان أولاً سليماً وكأنه الآن مريض" فيقول الآخر "وإلى أين يذهب أعساه يجد بلداً خيراً من بلدنا وقد صار

(*) الطغام: عامة الناس. المحرر

مقصد الواردين والصادرين" وربما دعت إحدى النساء صواحبها
لرؤيته وهي تلکزها وتومي إليه ولا تكاد تخاطب أحداً في الطريق
إلا وترى زمرة قد أهدقت بك ولا يكاد أحد يأتي أمراً إلا وتناقله
الرواة ويسمعون الظن في متزوج عاشر عزباً، أو في عزب دخل دار
متزوج ولا غرو فإن هذا شأن من لا يرى في بلده شيئاً يشغل
الخاطر من الأمور الخطيرة ويكون محصوراً في صخرة قرعاء راسبة
في البحر فإن حصر الفطن يكون من حصر العطن. ومن طبعهم
التكشف وبث ما هم فيه من الأحوال والاستقصاء عن حال
المخاطب فإذا صحبت منهم أحداً لا يلبث أن يطلعك على كمية
دخله وخرجه وكيفية عمله ويقول لي مال فأنتعم به ولو كنت
من المثرين لأكلت أطايب المأكول ولبست أفخر الملبوس فيا سعد
من عاش عيش المترفين فأحبرني أنت ما دخلك وكيف عيشك
ومن أين تشتري ثيابك وحاجتك ومن يزورك وهلم جرا. فأما
حبهم لكسب المال فهو بحيث لم يغادر لشيء سواه قيمة ومنهم من
يسافر إلى البلاد الشاسعة ويعرض نفسه للامتهان والابتذال حتى إذا
أحرز المال رجع إلى وطنه متبذخاً متشبعاً يمرح في الأسواق مرح من

أزدهته النعمة وأبطره الحظ. ولا شيء يعجبهم في الدنيا مثل بلادهم ولا تزال تسمعهم يتبحرون بها وبأحوالها وإذا سألت أحداً منهم عنها أجابك بلسان ذلق عما كانت عليه من الغبطة والسعادة وآلت إليه من سوء الحظ وهم في محبتها كاليهود في محبة صهيون. ومن الغريب مع هذا التفاخر أنك إذا ذكرت لأحدهم أفراد قومه لم تلقه راضياً عن أحد منهم فأول نعت ينعت به قوله هو أبله أو شحيح فكأن قوله نحن المالطين شأننا كذا يريد به وحدة نفسه. أما مفاخرهم بالألقاب فأكسى لهم من اللباس فقل أن ترى أحداً منهم من يقرأ ويكتب إلا وله لقب طيب أو فقيه أو بارون أو مركيز أو دكتور على أنهم لا يملكون به مسكة من العيش. ومن طبعهم التعقب للزلات والتعنت والاعتياب فيتعقبون الناس في مشيتهم ولبستهم ولهجتهم وسحتهم فلا يكاد يعجبهم شيء وما من خصلة حميدة إلا ويجعلونها قبيحة فإذا كان الإنسان كريماً قالوا إنه مبذّر وإن كان مقتصداً قالوا إنه شحيح. ولا يرحون مبررين على الإنكليز ومتظلمين منهم ويدعون بأنهم من بعد قدومهم إلى جزيرتهم ضاقت عليهم مذاهب المعيشة وغلت الأسعار حتى اضطروا

إلى أن يهاجروا من بلادهم التي يصفوها بأنها جنيئة مع أن لدولة الإنكليز في هذه الجزيرة عدّة سفائن حربية نفقة كل منها في اليوم نحو مائتي ليرة وترى عساكرها لا يبرحون يخرجون من حانة ويدخلون أخرى حتى ينفقوا آخر فلس معهم حتى صار معلوماً عند الجميع أن الأسعار إنما تغلو بوجود هذه السفن ثم إذا سافرت أخذ الذين ألفوا البيع لها في لدمدة والتسخط من كساد ما عندهم فإنّ الأهلين كلّهم لا ينفقون ما تنفق سفينة واحدة منها هذا وإن الإنكليز قد أنشأوا فيها جملة مصالح ومعالم لم تكن للمالطيين في حسان فقد كان بعض أصحابي بالاسكندرية كلّني بأن أسأل ناظر الديوان عن تركة والده وقد توفي بمالطة وهل كانت تحت حماية الإنكليز أو لا فلما سألته أجابني بعد البحث بأن ديوان مالطة قبل قدوم الإنكليز لم يكن له دفاتر مصححة يرجع إليها وإنما كانت عبارة عن أوراق يومية غير منظومة على أن المالطيين أنفسهم يقرون بأن حكّامهم في القديم كانوا ينالون من عرضهم لأنهم كانوا قد حرّموا الزواج على أنفسهم حتى أنه تجمّع في دار معدّة للنغول نحو ألف ولد يظنّ في كوهم أولادهم فكانوا يقولون فيهم أنهم على

قسيين يُورون بذلك أن الحكام المتشبهين بالقسيين يكفلونهم
لكوهم آباءهم أو أن الأولاد يصيرون قسيين ولكن دأب أهل
الجهالة أن يستطيعوا الماضي على الحاضر ويطمعوا في أن الآتي يكون
خيراً منهما ومن ذلك كراهيتهم للغرباء ولا سيما العرب ولن يقدر
أحد أن يستخلص منهم عشيراً وما يكون له بين ظهرائهم صديق
إلا إذا كان يربي جرو كلب ولعمري لو أن مالطياً افترى على
غريب وخاصمه لتألبوا على الغريب من كل أوب من دون أن
يعلموا السبب وهم مائلون بالطبع إلى البطش والفتك وأن كثيراً
منهم لا يمشون إلا ومعهم سكاكين يخفونها في ثيابهم ومدخل
العتاب بينهم مسدود فأول سبهم قولهم يحرق دين القديسين تبعك
ومن جهلهم أنهم لا يفهمون ما المراد بالدين هنا فإن مرادفه عندهم
في غير السب منقول من الطلياني والظاهر أن المسلمين حين ولايتهم
عليهم كانوا يتلقونهم بهذه التحية فتداولوها هم من بعدهم ومنهم
قوم ينتصتون إلى ما يجري بين المرء وصاحبه أو زوجته من الحديث
فإذا صح لهم جرٌ منفعة من ذلك انتهزوا فرصتها فوراً واختلقوا عليه
أكذوبة وللمالطيين جميعاً لهجة واحدة وإشارات واحدة فالرجال إذا

وقفوا يهزون أفخاذهم من الورك إلى القدم وإذا وصفوا أحداً
بالنحول رفعوا السبابة وأمالوها يميناً وشمالاً وإذا أشاروا إلى أمر
معتدل سوي رفعوا الكف اليمنى ورجفوها وإذا أرادوا الكثرة ضموا
الأصابع على الإبهام وحرّكوها عليه وإذا أرادوا النفي أمروا الأنامل
من تحت الذقن وإذا أشاروا إلى حسن امرأة جمعوا الكف وأمروها
على الصدغ إشارة إلى تبعيد سوائفها وإذا أرادوا وصف شيء
بالطيبة أرخوا اليد اليمنى ونفضوها مرّات وإذا سألوا الرجل عن
زوجته قالوا له كيف المرة وإذا زار أحدهم صاحبه فأول ما يجيى به
صاحب المنزل ويجعل تحية الست الأخيرة وإذا ذكروا اسم ولد
صغير ذكروا اسم الله عليه وإذا أوقدوا المصباح في المساء قالوا تحية
المساء والفلاحون لا يصرحون بعدد سني سنهم فيقولون مثلاً
أربعون وعشرة ولعل ذلك واصل إليهم من اليهود فإن العدد عندهم
فيما أعلمه مكروه. ومن العجب هنا أن الناس يحبون التكاثر في كل
شيء حتى في القبائح والذائل إلا في العمر ولا يتحاشى أحدهم إذا
زارك أن يجيىء معه بواحد أو اثنين جرياً على عادة العرب ويبادرون
إلى تهنة النفساء حال وضعها وتزدحم عليها الجيرة حتى العذارى

وتأتي أصحاب الآلات ويعزفون أمام البيت وهي آخذة في الطلق
ويزاطون عندها كما يزاطون في الأعراس. أما تحمّسهم في الديانة
ف فوق تحمّس أهل أرلاند وقد مرّ بك عدد الكنائس والقسيسين
وثروهم وملابسهم الكنائسية، وكما أن أهل أرلاند يسكرون
ويفحشون في عيد صان باترك كذلك المالطيون يسكرون
ويفحشون في عيد صان باولو بل في سائر الأعياد وإذا استأجر
مالطي داراً كان قد سكنها يهودي فلا يدخلها إلا إذا رش عليها
القسيس الماء المبارك وكذلك لو انتقل مثلاً مركب ونحوه من ملك
مسلم أو إنكليزي إلى ملك أحدهم فلا بد وأن يُعمّده وهم يُعمّدون
أيضاً أجراس الكنيسة جميعها وكذا الأجراس الصغيرة التي ينقس بها
أمام القربان و يقيمون لها كفلاء من الرجال والنساء مما عرف
بالأشايين وقد عمدوا مرة جرساً في كنيسة صان باولو وكان كفيله
الحاكم وزوجته لكونه كان كاثوليكيّاً، ويقولون إن دعوة الجرس
مستحابة فأول ما يحدث رعد أو برق يبادرون إلى الضرب به
و يُعمّدون المولود من أول يوم ولادته ولو كانت في شدة الزمهرير
ولا بد من أن يكون ذلك في الكنيسة لا في البيوت ومن يقف ينظر

إلى القربان وهم طائفون به من دون أن يسجد له فقد عرّض نفسه للخطر وقيل إنهم قتلوا مرّة رجلاً من بحرية الإنكليز وكان قد مرّ بهم ولم يسجد له فتناولوه ضرباً ووخزاً فحمل قتيلاً ومرة أخرى وقف بهم أحد ضباط العسكر وظل واقفاً فهجم عليه قسيس ورمى بغطاء رأسه فشكاه للحاكم فأخبر الحاكم الأسقف بذلك فحبس القسيس في داره مدة ثم أطلقه فذهب القسيس إلى رومية فأكرمه البابا وأعادته إلى الأسقف وأمره بإعلاء درجته فلما بلغ الحاكم ذلك نفاه من البلد ويقولون إن شكل الصليب مخلوق في جثة كل إنسان وذلك بأن ييسط يديه وهو رافع رأسه وإن اسم مريم العذراء مرسوم أيضاً في كل كف فإن خطوط الكف الأصلية تشبه حرف الميم باللاتينية ونحو من هذا ما وجدت في بعض الكتب العربية من أن اسم النبي صلى الله عليه وسلم مكتوب في كل جثة فإن الميم تشبه الرأس والحاء تشبه الصدر والميم تشبه السرة والذال تشبه الساق. وفي أيام الصيام وفي يومي الأربعاء والسبت لا تصرّح باعة الحليب باسم ما يبيعون وإنما يقولون هون تا الأبيض ولفظة تا محرفة عن متاع بمعنى صاحب كما يستعملها أهل تونس وطرابلس

وفي غير هذه الأيام يقولون حليب ومع شدة تهمسهم هذا فإنهم يبيعون ويشترون أيام الآحاد والأعياد كما في غيرها والمتدين منهم من يفتح فيها دكانه إلى الظهر فقط وقد رأيت كثيراً من مدن إيطاليا ولم أر فيها تماثيل عديدة في الطريق كما يرى في مدينة فالتة. وقد كانت هذه التماثيل في الزمن القديم ملاذاً يعتصم به أهل الجنايات فكان القاتل إذا فر ولطئ تحت تمثال منها ينجو من قصاص الشرع وقد بطلت الآن هذه العادة وينبغي هنا أن نذكر أن المالطين يأنفون من أن يطلقوا اسم النصارى على الإنكليز وإذا تزوج إنكليزي مالطيّة على يد قسيس إنكليزي فإن زواجه غير شرعي.

فصل في

الإنكليز وحكومتهم بمالطة

لما كانت هذه الصخرة البحرية عزيزة على الإنكليز لموقعها في بحر الروم كما لا يخفى كان لهم في حكومتهم بها من التساهل والتسامح ما ليس في بلادهم ويمكن أن يقال إن الحكم هنا مالطي وإن يكن الحاكم إنكليزياً فإن القضاة وفقهاء الشرع وكتاب الصكوك والمتوظفين في الدواوين وشرطة الديوان جميعهم مالطيون وليس على الناس مكس ولا ضريبة ولا يدفع مكس في الكمر كإلا على الخنطة والمسكرات والبهائم وهو قليل جداً.

ومن اقتنى مركباً أو خيلاً أو استخدم خدمة فلا يؤدي على ذلك شيئاً وكذا الذين يبيعون بقول الأرض وثمرها وليس لخزنة الدولة من إيراد هذه الجزيرة ولا فلس واحد وإنما يصرف جميعه في لوازمها وجملته تبلغ تقريباً ١٠٤,٢٠٠ وتفصيلها من ديوان الكمرك نحو ٦٥,٧٠٠ ومن الدكاكين ١,٦٠٠ ومن المحاكم ٢,٧٠٠ ومن بوسطة المكاتب ١٨٠ ومن تقييد الصكوك ١٣٠ ومن خراج الأرض ٢٣,٧٠٠ ومن المزارد ٢٠٠ ومن الكرنيتية ٣,٣٥٠ ومن المراكب ٣,٩٠٠ ومن مصالح آخر ١,٧٠. يصرف منها مرتب وظائف وسنويات ٤٢,٠٠٠ منها ٥,٠٠٠ للحاكم ولخديفته ٤٠٠ ولكاتب سره وهو من الإنكليز ١,٠٠٠ وللكتاب الثاني ٥٠٠ ولناظر الخزنة ٣٥٠ ولمدير الحسابات ٦٠٠ ولمستوفي الأموال ٥٠٠ ولناظر الكمرك مثلها ولكبير القضاة ٦٠٠ ولكبير الشرطة ٤٥٠ ولناظر المرسى ٤٠٠ ولناظر الكرنيتية ٣٠٠ ولقسيس الحاكم ٥٠٠ ولأسقف مالطة ٢,٠٠٠ وللمصروف على المستشفيات وغيرها من الأفعال الخيرية ٤,٤٠٠ وعلى المدرسة الجامعة وقد تقدّم ذكرها ٢,٧٠٠ وعلى المرتزقين والمتقاعدين ١٣,٢٥٠ أما مصاريف

عسكر الإنكليز وهم ثلاث كتائب فمن خزنة الدولة وللعسكري في اليوم نحو شلين ويقال إن إيراد مالطة منقسم إلى ثلاثة أثلاث الثلث الأول للميري والثاني للكنائس من الوقف والتسبيل والثالث لأصحاب الأملاك. فقد تبين لك رفق دولة الإنكليز بحال المالطين ولو أن جزيرتهم كانت أكبر مما هي الآن بمائة مرة لما كان إيرادها كله مكافئاً لمكس صنف واحد في إنكلترا وحسبك أن مكس الملط وحده هناك ينيف على خمسة ملايين ليرة. ومن تساهلهم معهم أنهم يرخصون لهم في التطواف بالقرى وثمانيل القديسين سواء كانت من خشب أو حص أو غير ذلك مع أنه مغاير لعقائد كنيسة الإنكليز لا بل يطوف معهم جوقة من العسكر وهم عازفون بآلات الطرب أمام التمثال ولا غرو فإن الدولة فرضت لصنم في بلاد الهند اسمه جوجرنوت ٥٦,٠٠٠ روية وهي عبارة عن ٢٦,٠٠٠ ريال ولغيره أيضاً من الأصنام مرتب وافر ولكهان الهند وظائف يرتزقونها من الديوان في كل عام. قيل ويوجد في الهند نحو ١٤,٨٥١ محلاً مخصصاً لعبادة الهندو يبلغ مصروفها من طرف الدولة المذكورة نحو ٣٥,٠٠٠ ليرة وقد صرف مرة على إقامة عيد

من أعيادهم ٤٠,٠٠٠ روية مع ما لزم لهيكل الصنم وفي هذه الأعياد الكبار تطلق المدافع من السفن والقلاع ويمشي أمام الصنم طائفة العازفين من الجيش. وفي عيد إلقاء جوز الكوكو في نهر الهند يترل ذوو الأمر والحكم من الدولة ويأخذونه من الكهنة بعد أن يصلى عليه ثم يلقيه في النهر وحينئذ تنشر السفن راياتها المتلونة وتطلق المدافع منها ومن الأبراج وكذلك يفعلون في الأهلّة إظهاراً لشعائر الإسلام وكل ذلك دليل على أن الدولة لا تبالي بمباينة المذاهب والأديان في ممالكها إذا كانت هذه الأديان غير مانعة من أداء ما يلزم أداؤه للخزنة من المال وللتاج من الطاعة، وقد حاول مرة حاكم مالطة وكان على مذهب البرتستانت أن يبطل عادة المسخرة يوم الأحد في المرفع على ما تقدم ذكره فإن الإنكليز يحترمون هذا اليوم غاية الاحترام كما ستعرفه وإذا بالمالطيين جميعهم تألبوا عليه وماجوا يطوفون وهم يسبونه ويقبحون عليه بألقاب سمجة وإشارات منكرة حتى إن بعضهم حاكاه في زيّه وهيئته وجعل على رأسه قروناً ثم أحرقوا بكنيسة الإنكليز وهم عاكفون على العبادة وزاد ضجيجهم ولغظهم هناك حتى لم يسع الحاكم وحشمه

غير الفرار إلى حديقته خارج المدينة وما زالوا مذ ذلك الحين يلحفون في طلب حاكم من مذهبهم حتى صدر أمر من الدولة بعزل الحاكم المذكور فجاءهم حاكم من أهل أرلاندا أكثر تحمُّساً منهم وهو الذي وقف شاهداً على معمودية الجرس ومن سنن الإنكليز في بلادهم أن تغلق جميع الحوانيت في يوم الأحد إلا دكاكين العقاقير والحانات التي تباع فيها الجعة والشراب إلا أن هذه تغلق أيضاً عند إقامة الصلاة فأما في مالطة فلا حرج على أحد منهم أن يبيع ويشترى فيه أي شيء كان. ثم إنني لست ممن يتصدّون إلى تبديل القوانين والأحكام ولا ممن يتحرّشون بالحكّام مخافة أن يعزلوني عن ولاية قلمي ولا يتأتى لرجل مثلي أن يصلح شريعة دولة قديمة ولا سيّما شريعة الإنكليز فإنها عندهم لا تقبل التبديل ولا التحريف وكل عادة من عاداتهم تقوم مقام سنّة إلا أن بيداء أصولهم وأحكامهم تظهر لبصري الكليل القاصر في غاية البعد عن الإدراك أما أولاً فلأنّ قصاص كثير من الإساءات والجنايات يفتدى عندهم بغرامة للميري فإذا افترى مثلاً لثيم على كريم ولطمه بحضرة الناس أو هتر عرضه غُرْمَ شيئاً من الدراهم للخزنة وخرج من بين يدي

القاضي على أشرّ خلق مما كان عليه فتكون مصلحة الحكّام على هذا ازدياد الخصام والشر بين الناس لأن خيرهم إنّما هو من شر الطغام فيا ليت شعري ما نفع الكريم بعد أن يسب ويفترى عليه أن يرى غريمه مؤدياً للميري ثمن عرضه وشرفه وكيف تصحّ التسوية بين العباد والله تعالى لم يسو بينهم بل فضل بعضهم على بعض فجعل اللئام يبدلون ماء وجوههم ويمتحنون أنفسهم في تحصيل معيشتهم وجعل ذوي الأدب والعرض يزهون أنفسهم عن الشين والمنكر فهل من العدل أن لا يجعل بينهما فرق في الأحكام والمعاملة وإلا لزم أن نقول أن من يساوي بينهما وهو الحاكم ينبغي أن يكون مساوياً لمن فرض عليه الحكم فلو تعمّد رجل مثلاً للطمع الحاكم على وجهه وهو جالس على كرسي الحكم أفعساه كان يغرم دريهمات لخزنة الدولة وهل من العدل أن ترى لثيماً ينازع كريماً على شيء هو أدنى من أن يخطر بباله نعم تصحّ التسوية بين غريمين تجهل حالهما فأما الحاكم الشرعي الذي يعرف أهل بلاده ويخبر فاضلهم من مفضولهم فلا ينبغي له أن يسوي بين كل مُدَّعٍ ومُدَّعَى عليه كما أنّه لا ينبغي أن يوزن الذهب في ميزان الخشب

وفضلاً عن ذلك فإن من ضرب مثلاً مرة لا يصح أن يجري عليه حكم من دأبه وديدنه الضرب وإلا لزم أن نقول إن أهل اللغة أعدل وأحكم من أهل الشرع حيث فرّقوا بين الضارب والضارب والضروب هذا ولما كان الظاهر من حكم الإنكليز أنه مبنى على التسوية كانت الأوباش من أهل مالطة مثل أهل الفضل منهم في أنه لا يقبل للفاضل كلام على المفضول ولا يفصل بين اللئيم والكريم منهم غير الشهود وإن كان اللئيم معروفاً بلؤمه وردائله وربما طلبت باعة المأكولات في شيء قيمته درهم عشرة دراهم فلا يمكن للمشتري أن يعارضهم بشيء وإذا أبى أن يشتري لم يخل من تناول البائع عليه وقس على ذلك أصحاب القوارب والحمالين وغيرهم من السفلة فأى إنصاف هنا أن يرخص لهؤلاء في هذا التعدي والطغيان ثم يقال إن ذلك تسوية ثم أي إنصاف أن يُرخص للباعة في أن يخلطوا الموانع وأن يضعوا السمك واللحم الذي نشم في الخموم في الثلج حتى يتطرى وفي أن يبيعوا الفج من الأثمار وأن يجعلوا سعر الشيء الواحد متفاوتاً على قدر تفاوت الساعات وأن تطوف السكرارى في الأسواق ضاحجين زائطين بالغناء واللغط ثم

يقال إن ذلك حرية لعمري أن فلق المحتسب في بلادنا خير من هذه الحرية لأن الحرية إنما تكون حميدة مفيدة ما إذا روعي فيها مصلحة عمومية على أخرى خصوصية لا بالعكس فتباً لحرية تفضي إلى تسويد اللثيم على الكريم وهذا الفساد الحاصل في البيع والشراء في مالطة هو بعينه في لندرة كما سنذكره في محله وسببه أنه لما كان ذوو الأحكام هنا وهناك لا يأكلون سوى أطيب المأكول ولا يشربون سوى أفخر المشروب غفلوا عن مصلحة الجمهور وظنوا أن سمنهم موجب لصحة جميع عباد الله ومن فساد الأحكام هنا أيضاً أنه إذا كان لأحد حق على آخر وأراد سجنه لزمه أن يقوم بمؤنته وإن يكن المديون لصاً أو معتدّاً وكان المحق عادلاً فاضلاً ولا يخفى أن في ذلك حظراً للثقة والائتمان لأن حبس الغريم لا ينفع الدائن شيئاً وأن السجن لكثير من الأشقياء المناحيس خير لهم من خصائصهم ولما كان هؤلاء السفلة مفرطين في القبائح والشرور على ما ذكرنا كان من أهم الأشياء على الحر أن يتجنبهم ما أمكن وليس عليه أن يحترز من الأعيان وذوي الأمر والنهي فإنهم لا يتناولون على أحد لما يعلمون من قضية التسوية بخلاف العادة في

البلاد الشرقية فإن أصحاب المناصب هم الذين يخشى بأسهم
وشرهم ومن فساد الأحكام أيضاً أن القضاة تقبل شهادة أي شاهد
كان سواء كان سكيراً أو شريراً وكذا شهادة النساء والأولاد
مقبولة فمتى قبل الشاهد الصليب مضت شهادته والإنكليز يحلفون
على الإنجيل ومتى أقيمت دعوى حشد الناس لاستماعها وإن تكن
من الأمور التي كتمها أولى من إذاعتها وهنا أيضاً أنكر التسوية لأنه
إذا حدث مثلاً أمر مرة بين والد وولده أو رجل وامرأته وكانوا من
ذوي الفضل وأفضى ذلك إلى التحاكم لا ينبغي أن يجعل بمقتلة
دعوى رجل على آخر بأنه سرقه أو شتمه ثم أن من الأصول المقررة
عند الإنكليز أن كل من يدخل أرضاً تحت حكومتهم يصير حراً
وتجري عليه أحكامهم وقد جاء مالطة كثير من كان لهم عبيد وإماء
فأجبروا على تحرير رقيقهم ومن يقيم خمس عشرة سنة ويعلم أنه
كان في خلال ذلك حسن التصرف والسلوك حق له أن يطلب
الحماية الجنسية ولكن يلزمه أداء نحو عشرين ليرة وهذه الحماية هي
أنفع من حماية الإنكليز التي تعطى من بلادهم كما سنبين ذلك
وللحاكم عشرة مشيرين من أعيان الأهليين يشاورهم في المصالح

العائدة إلى بلادهم وفي كل خمس سنين يعزل وربما أقام أكثر إذا طلبت الرعية ذلك وقصره ستة عشر بندقية وعشرون ألف مزراق وأربعة آلاف درع وألفا طبنجة أما أخلاق الإنكليز هنا فهي مغايرة لأخلاق جنسهم في بلادهم فلا يصح لمن رأيهم أن يحكم بأن جميع الإنكليز مثلهم فإن هؤلاء متكبرون صلفون مع البخل والشح وبش الكبر والشح إذا اجتمعوا. وما أحد منهم إلا ويظن بأنه هو فاتح هذه الجزيرة بأسه وسيفه ولاسيما ضباط العسكر فإنهم على قنة الصلف والتبذخ وإذا دخلت على أحد من هؤلاء الفاتحين وهو يأكل فلا يتكلف أن يدعوك إلى طعامه بل ربما غضب على جميع أهل داره على عدم منعهم إياك من الدخول كما قلت:

إذا زرت أرحبهم دارة	توهم غولا قد اغتالها
يغلق أبوابه إن نوى	فطورا ويحكم أقفالها
ومن كان فيهم له خادم	يظن المعالي قد طالها
إذا تتبوا كرسية	وبشك من زوجه حالها
يرى أنه محسن مفضل	وإن المآثر قد نالها

وإذا زرتة وأقمت عنده إلى وقت غدائه وأردت الذهاب فلا يدعوك إلى الطعام معه ومن طبعهم حب الانفراد والعزلة فإن أحدهم ربما أقام شهراً تاماً من دون مشاهدة الناس استغناء عنهم برؤية ما عنده من فاخر المتاع وبقراءة صحف الأخبار أما عندنا فالأخبار لا تعرف إلا بالنقل والرواية فلم يكن لنا بد من الاجتماع ليلاً ومن سوء أدب بعضهم هنا أنهم يجعلون في أعناقهم شريطة فيها زجاجة فكلما لمحوا امرأة فرعوا إلى الزجاجة ليستثبتوها بها وفي ليالي الرقص عندهم ترقص بنت الرجل منهم مع عدة زيرة وهو ناظر إلى ذلك بعين شكرى من الابتهاج ولا سيما حين يخاصرونها وكما أن الرجال هنا ليسوا براموز حسن على أهل انكلترا كذلك كانت النساء مخالفات لمن في بلادهن فإنهن هنا بمعزل عن الحسن والجمال وأكثرهن فقم وشوه ومن الغريب أنه مع ترفههن وركوبهن الخيل في كل يوم غالباً فلسن يرى فيهن بادية ولا فضيلة لهن إلا في كونهن يحسن القراءة والكتابة ويؤسسن العلم في أولادهن على صغر فإن الولد لا يبلغ هنا خمس سنين إلا ويكون قادراً على القراءة أما عندنا

فيذهب سن الصبا باطلاً فمتى أخذ بعد ذلك في التعلم وجده بعيد
المأخذ صعب المرتقى وأشهد لو أن نساء بلادنا يترشحن في المعارف
على صغر لفضلن نساء جميع الإفرنج فضلاً باهراً فإنهن أرق أذهاناً
وأسرع فهماً والحاصل أن الإنكليز هنا رجالاً ونساءً ليسوا من خيرة
بلادهم وأن كبرهم وعتوهم وجشعهم جعلهم مبغضين عند جميع
المالطين فما من مالطي تسنح له فرصة لأذى إنكليزي إلا ويتنزهها
فأما الموظفون منهم في خدمة الحكومة فإنما هم راضون عن
أصحاب السياسة لا عن أفراد الإنكليز المجاورين لهم.

فصل في

موسيقى أهل مالطة وغيرهم

قبل الدخول في هذا الباب الحرج ينبغي أن استأذن أصحاب أهل الفن في التطفل على هذا النحو وإن كنت لا أعدُّ من جملتهم غير إني علمت منه ما يمكنني أن أعرف المستقيم فأقول قال بعض الفلاسفة أن فن الموسيقى فضلة من المنطق أخرجها العقل بالصوت لما لم يمكن إخراجها بالقياس فَمَنْ أَوَّلَ المنطق بالاصطلاحى قال معناه أن أركان هذا الفن ذهنية بناء على أن المتقدمين كانوا يتعاطونه بالسمع والذوق فيرسم السامع ما يسمعه من الأصوات في مخيلته وذاكرته دون مشاهدته لدلائله وهكذا يتلقاه التلميذ عن

معلمه بالترسّم عن ظهر القلب والاتباع مع الملكة التي تُرسّخ في مخيلته تلك الترجيعات ولهذا كان المعوّل عليه في تحصيل هذا الفن ملكة الذوق أما الإفرنج فقد جعلوا الآن ترجيع الصوت وإيقاعه داخلاً تحت حس المشاهدة فدلوا عليه بنقوش ورسوم معلومة كما دلت الحروف على المعاني فلم يكن تحصيله متوقفاً على ذاكرة وعظيم معاناة كما في السابق فمن كان منهم عارفاً بخارج النغم ورأى تلك العلامات أمكن له أن يخرج عليها أي صوت كان من دون أن تتقدم له سابقة فيه وإذا اجتمع منهم عشرون رجلاً وكانت أمامهم تلك النقوش رأيت منهم متابعة واحدة ويُرَدُّ على هذا التأويل أنه لو كانت الموسيقى فضلة من المنطق لكانت واحدة الاستعمال كما أن المنطق واحد الضوابط على أن الناس متغيرون فيها تغيّراً شديداً. فإن ألحان العرب لا تطرب غيرهم بل هؤلاء أيضاً مختلفون فإن أهل مصر لا يطربون لألحان أهل الشام وألحان الإفرنج لا تطرب أحداً من هؤلاء وعلى تأويل المنطق بالمعنى اللغوي وهو المراد هنا فقد جاء في شرح رسالة ابن زيدون لسلطان المتأدّين ابن نباتة ما نصه "النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان عن

إخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع فلما ظهر عشقته النفس وحنَّ إليه القلب اه. والمراد بالترجيع لا التقطيع أن يكون الصوت ممتداً ينحى به لا متقطعاً كأصوات الهجاء فإذا كان فن الموسيقى والحالة هذه فضلة من المنطق على هذا التأويل لزم أن نقول إن لكل جيل من الناس محاسن في الغناء مقصورة عليهم فقط فإن لكل لغة محاسن وعبارة لا توجد في غيرها والواقع بخلاف ذلك فإن لغتي الصين والهند مثلاً تشتملان على محسنات لا توجد في غيرهما إلا أن أنغامهم خالية من ذلك أما ألحان الإفرنج فلا يطرب لها منا إلا من ألفها وهي عندهم على أربعة أنواع الأول وهو أحسنها ما يتغنّى به في الملاهي مثل الموشحات عندنا مع مد الصوت وترجيعة وخفضه ورفع وترقيقه وتفخيمه وترجيفه وفيه تدخل حماسة وتحريض وتدمير والثاني وهو يشبه ما يُرتل له في الكنائس ولا يكاد يكون به ترجيف والثالث ما يغنى به في المحرنات والبث وفي هذا النوع يستعملون غناء رقيقاً أشبه بالنجوى فمن يسمعه يلحن ما المراد به وإن يكن جاهلاً باللغة كما إذا رأيت شخصياً مجهشاً للبكاء فإنك تعلم إجهاشه بالبديهة وإن لم

تعرف سببه والرابع ما يتغنى به في المضحكات والمحاورات وهذا يقل فيه الترجيع ويكثر فيه النثر وتطريبه إنما هو من حيث أنهم يصلونه بأشياء كثيرة وحركات مضحكة فيضحكون فيه ويقهقهون وييكون ويتشاءبون ويعطسون ويحاكون به قيق الدجاج وصداح العصافير وغيرها وفي كل من هذه الأنواع يستعملون المساجلة وهي مطربة جداً. وأكثرها في النوع الأخير ويوفقون عليه ألفاظاً مولدة غريبة وكما أن لهم غناء مضحكاً كذلك لهم رقص يحمل التكلية على القهقهة أما العرب فإنهم يقولون إن الرصد يشجي والسيكاه يفرح والصبا والبيات يحزنان والحجازي ينعش وينعش وهلمّ جرّاً والفرق بين الفريقين من عدة وجوه (أحدها) أن الإفرنج ليس لهم صوت مطلق للإنشاد من دون تقييد بتلك النقوش فلو اقترحت على أحدهم مثلاً أن يغني بيتين ارتجالاً كما يفعل عندنا في القصائد والمواليات لما قدر وهو غريب بالنسبة إلى براعتهم في هذا الفن لأن الإنشاد على هذا النوع طبعي وقد كان عندهم من قبل أن تكون النقوش والعلامات فيا ليت شعري كيف كانوا ينشدون قبل أن نبغ غويدو داريتسو في إيطاليا (الثاني) إنه إذا اجتمع منهم عشرة مغنين

وأرادوا إخراج موشح أخذ بعضهم في بعض أركانه من مقام وبعض في البعض الآخر من مقام غيره فإن كانت الأغنية مثلاً من الرصد غنى واحد جزءاً من هذا المقام بصوت جهير وآخر جزءاً من النوى بصوت رقيق وآخر جزءاً من الجواب بصوت عال فيسمعه السامع من عدة مقامات ويسمى ذلك عندهم هرموني أي أن الأصوات تتألف على الغناء وفي هذه الطريقة فوائد ومخاسر أما الفوائد فلأن السامع يسمع في وقت واحد موشحاً واحداً من عدة مقامات بأصوات مختلفة فهو كمن يسمع قصيدة واحدة من جميع بحور العروض وأما المخاسر فلأن السمع لا يتمكن كل التمكن من إدراك جميع مخارج تلك الأصوات المتغايرة وهذه الطريقة عندي على الآلات أحسن منها على الأصوات (الثالث) أن غناء الإفرنج هو مثل قراءتهم في أنه لا يخلو عن حماسة وتهيج فضلاً عن التشويق والتطريب والترقيص فغناء الحماسة والتهيج هو الذي يكون به ذكر القتال وأخذ الثأر والذبُّ عن الحقيقة فإذا سمعه الجبان ولا سيما من الآلات العسكرية هانت عليه روحه أما الغناء العربي فكله تشويق وغرامي وأجدر به أن يكون جامعاً لمعني الطرب وهو خفة تصيب

الإنسان من فرح أو حزن فإذا سمع أحد منا صوتاً أو آلة شغف قلبه
الغرام فبدت صبابته وحنّت نفسه كما يحن الإلف إلى إلفه حتى
يصير عنده آخر الفرح ترحاً ولا غرو إن صَعَدَ منه الزفرات وأذرف
العبرات فإن السرور إذا تفاقم أمره وتكامل بדרه دب فيه محاق
الشجن واختلط به الحزن حتى يستغرق صاحبه في بحر من الوجد
ويشتغل بنار من الهيام وعلى ذلك ورد قولهم طربه وشجاه من
الأضداد (الرابع) إن الإفرنج لا قرار لأصواتهم إلا على الرصد نعم
إن جميع الأنغام يوجد لها مقامات في آلاتهم بل توجد أنصافها
وأرباعها إلا مقامين منها لا أنصاف لهما إلا أنهم لا يقرون إلا على
المقام الأول وقد سمعت منهم الرهاوي والبوسليك والأصفهاني أما
غيرها فلم أسمع قط بل قد سمعت منهم بعض أغان من أغانيها
أوقعوها على آلاتهم فكانت كلها رصداً وقد والله طالما وقفت
السمع على أن أسمع منهم أنغامنا فخبث حتى اعترتني الحيرة فإني من
جهة كنت أرى آلاتهم بديعة الصنعة على كثرتها وأفكر في أن
العلوم انتهت إليهم والفنون قصرت عليهم وإن عندهم في هذا الفن
بدائع كثيرة فأتيت على ما سبق ذكره، ومن جهة أخرى أرى أن

براعتهم كلها إنما هي من مقام الرصد. نعم إن هذا المقام هو أول المقامات وإنه يغنى منه في مصر وتونس أكثر مما يغنى من غيره إلا أن فضل الصبا والبيات والحجازي لا ينكر. أيضاً ثم أعود فأقول لا غرو أن يكون قد فاتهم أيضاً بدائع في هذا الفن كما فاتهم في غيره أشياء أخرى وذلك ككثرة بحور العروض عندنا وكبعض محسنات الكلام وكالسجع في الكلام المنشور إذ ليس عندهم سوى المنظوم وهو في الإنشاء كالصوت المطلق في الغناء فإن السجع مقدم على النظم وكعجزهم أيضاً عن لفظ الأحرف الحلقية وقد سألت مرة أحد أهل الفن منهم فقلت إن المقامات موجودة عندهم وعندنا على حد سوى وكذا أنصافها فبقي الكلام على استعمالها فإننا لو استعملنا مثلاً نصفاً من الأنصاف مع مقامه وأنتم تستعملونه مع مقام آخر بحيث يظهر لنا أنه خروج فمن أين تعلم الحقيقة؟ فما كان منه إلا أن قال إن هذا الفن قد وضع عندهم على أصول هندسية لا يمكن خرمها فلا يصح أن يستعمل مقام إلا مع مقام آخر على أني كثيراً ما سمعت منهم خروجاً فاحشاً على شغفي بالخاصم وقد شاقني يوماً وصف المادحين إلى سماع قينة بلغ من صيتها أنها

غنت في مجلس قيصر الروس فلما سمعتها طربت لرخامة صوتها وطول نفسها في الغناء إلا أني سمعت منها خروجاً بحسب ما وصل إليه إدراكي ولو تيقن أن ألحان الروم التي يرتلون بها اليوم في كنائسهم هي كما كان يتغنى به في أيام الفلاسفة اليونانيين لكان ذلك دليلاً آخر على قصور ألحان الإفرنج فإن أنغام الروم مقاربة لأنغامنا (الخامس) أن أكثر أصحاب الآلات عندهم لا يحسنون إخراج أنصاف النغم وأرباعها ما لم تكن مرسومة لهم إلا صاحب الكمنجة فأما الناي ففيه خروق شتى غير السبعة لكل اثنين منهما طباقه إذا سد منها منخر جاش منخر غير أن الصنعة في إحكام سدها واستعمالها تقارب صنعة تغيير نقل الأصابع عندنا وهذه الأنصاف والأرباع في النغم مثل الروم والإشمام في النحو وفي الجملة فإن للإفرنج حركات في هذا الفن خارجة عن ذوقنا وأخرى لا يمكن محاكاتهم بها ومما مر تفصيله تعلم أن إنشادهم في الحماسة والفخریات غير معروف عندنا وأن مطلق الصوت عندنا غير معروف عندهم ومن الغريب أنه مع كثرة ما عندهم من الآلات والأدوات فقد فاقهم العود على محاسنه والناي من القصب فإن نايهم

هو بمثابة الزمر عندنا على أن أكثر العلماء قرر أن أصل الموسيقى مأخوذ عن صوت الريح في القصب وقال بعض أنه عن صداد الطير وغيره أنه عن تحرير الماء وآخرون أنه عن أصوات مطارق طوبال قين وأول من ضبط أصول هذا الفن يوبال وذلك في سنة ١٨٠٠ قبل الميلاد وكان اختراع الناي في سنة ١٥٠٦ ونسب إلى هيجنيس وعلى ذكر مطارق القين فقد ورد في شرح مقامات الحريري في ترجمة الخليل أن أول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب به الخليل بن أحمد أبو عبد الرحمن الفراهيدي الأزدي وكان سببه أنه مر بالبصرة في سوق القصارين فسمع الكدنيق أي المطرقة بأصوات مختلفة سمع من دار "دق" وسمع من أخرى "دق دق" وسمع من أخرى "دقق دقق" فأعجبه ذلك فقال والله لأضعن على هذا المعنى علماً غامضاً فوضع العروض على حدود الشعر إلخ. وأشجى آلة من الآلات الإفرنجية هي "الكنشرتينة" وهي فرع من فروع الأرغن ونحو من المنفخ يفتح ويطبق وهي من مخترعات وينسطون ومن المعلوم أنه كلما رقت طباع الناس ولطفت أخلاقهم كانوا إلى المحاضرة في مضمار الطرب أسبق ولشدنا عبيره أنشق فإن

المولع بغير المعاني ونكات الكلام لا يسمع الألحان إلا ويتصور معها من الحسن ما يهيم به جداً قبل أن يشعر الغني بمجرد معرفة كونها غناء ولا سيما إذا كان الإنشاد معرباً والوقت معجباً وقد جاء في شرح لامية العجم للعلامة الصفدي من لم يحركه العود وأوتاره والربيع وأزهاره فهو فاسد المزاج بعيد العلاج وقال أفلاطون من حزن فليسمع الأصوات الطيبة فإن النفس إذا حزنت خمد نورها فإذا سمعت ما يطربها ويسرها اشتعل منها ما خمد. وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي شر الغناء والشعر الوسط لأن الأعلى منها يطرب والدني يضحك ويعجب والوسط فلا يطرب ولا يضحك ومن الغلط البين أن يقول أحد إنني لم أطرب لهذه الألحان لجهلي باللغة فإن أصل الطرب إنما يكون عن الصوت لا عن الكلام المتغنى به. أما أهل مالطة فإنهم في الغناء مذبذبون كما في غيره أيضاً فلا هم كالإفرنج ولا كالعرب فأهل القرى منهم ليس لهم إلا أغاني قليلة وإذا غنوا مطوا أصواتهم مطاً فاحشاً تنفر المسامع منه فمضاهاتهم للإفرنج هي في اقتصارهم على الرصد وللعرب في أنهم إذا اجتمع طائفة للغناء لم يخرجوا أصواتهم إلا من مقام واحد ويقوم أحدهم

ينشد ويرد عليه الباقي أما الأعيان منهم فإنهم يتعلمون الألحان
الطليانية. وأكثر العميان بمالطة صنعتهم العزف بالآلات فمقي قدم
أحد من سفر أو ولد له ولد أو تزوج أو عمّد ولده أو ترقى إلى
رتبة أو كسب مكسباً جزياً بادروا إلى تهنئته ولا يخفى عنهم شيء
مما يحدث في بلدهم ويقال إن إحدى بنات الأعيان فجرت مرة
وكنمت حبلاً عن أهلها ثم غابت أياماً حتى وضعت ولدها فلما
رجعت إلى بيتها أقبلت زمرة منهم يعزفون أمام الدار فسألهم أبوها
ما سبب ذلك فأخبروه بوضع ابنته ففطن حينئذ لغيابها.

والذي يظهر لي أن الأنغام التي كان يتغنى بها في أيام الخلفاء
كانت أشبه بغناء المغاربة الآن منها بغناء المشارقة واللازمة التي
تستعملها المغاربة في غنائهم هي دي دي كقول أهل مصر والشام
يا ليل وكقول الترك أمان وفي القاموس ما كان للناس حذاء
وضرب إعرابي غلامه وعض أصابعه فمشى وهو يقول دي دي أراد
يا يدي فسارت الإبل على صوته فقال له إلزمه وخلع عليه فهذا
أصل الحذاء أهـ. وأسماء الأنغام عند المغاربة مخالفة لأسمائها عندنا
وهم يزعمون أنهم نقلوا هذا الفن عن أهل الأندلس وأهل تونس

أكثر ترسلاً منهم والظاهر أن الموالي من خصوصيات أهل مصر والشام وكذلك الناي والقانون والغالب في من غنى صوتاً وأجاد أن يظن أن لم يبق ذو أذن واعية إلا وسمعه وإذا لم يجد ألفى لنفسه عذراً وذلك بأن يتنحج أو يسعل فيحيل القصور على شيء طراً عليه هذا إذا كان المغني غير متخذ الغناء له صنعة فأما من درب فيه فقل أن يعرض له خروج لأن الصوت كالألة كلما زاد استعمالاً زاد جلاء. وكما أن غناء أهل مصر أطرب وأعلى من غناء جميع العرب كذلك كان غناء الطليانيين أعلى من غناء سائر الإفرنج وذلك لكثرة ما في لغتهم من الحركات فهي مثل لغتنا صالحة للغناء والعروض ولكون أصواتهم صادرة عن صدورهم.

أما لغة الإنكليز فلكثرة السواكن فيها لا تطاوع على الغناء الذي فيه مد وترجيع إلا بتحويل الألفاظ عن وجهها وخرم قواعد النطق بها. وإنما يحسن بها الأغاني المضحكة وأصواتهم كلها من أزوارهم وكأن المغني منهم يغني وقد غص بلقمة. وجميع الإفرنج يقولون إن غناء العرب من خياشيمهم وعلى فرض تسليم ذلك فما يكون منافياً للأشجاء والتطريب فإن اللغة الفرنسية لا يتكلم بها

إلا مع الغنة وهي مع ذلك أشجى لغات الإفرنج جميعاً وربما طرب لها من سمعها أول مرة من عمره وقد رأيت من الإفرنج من كان يطرب للأتغام المصرية ولكن غب طول مكث بمصر وكان في أول أمره يأنف منها ويقول إنها محزنة ولا يخفى أن للعادة تأثيراً في جميع الأحوال وخصوصاً في المنطق والألحان وناهيك أن الأطفال عندنا وعند الإفرنج ترقد على الغناء فتعتاد عليه مذ الصبي فإذا امتزج بأمرجتها كان سماع غيره ضد المألوف وأهل مالطة يرقدون أطفالهم على ما هو أشبه بنواح الندابات في بلادنا ولولا العادة لما عجزت الإفرنج مع حكمتها عن النطق بأحرف الحلق وهي التي وفّت حق نسائهم جزافاً وبخست نساءنا حقهن.

فصل في

لغة أهل مالطة

اعلم صانك الله عن الزلل وسددك إلى صواب القول والعمل
إن اللغة المالطية فرع من دوحة العربية وشيصة من ثمرها وهي يتكلم
بها في جزيرتي مالطة وغودش وسواء في ذلك العامة والخاصة غير أن
هؤلاء يتعلمون أيضاً الطليانية والإنكليزية لاحتياجهم إلى الأولى في
المعاملات والتجارات وكتب الشرع وغيرها ولتنافسهم في الثانية
لكونها لغة أرباب الحكم وذلك لأن اللغة المالطية لم تُدوّن فيها علوم
ولم يشهر فيها كتب فهي عبارة عن ألفاظ يتداولونها فيما هو من
مقتضيات الأحوال الساقطة دون أن تفي بحاجتهم فيما يقصدونه

من وصف أو نسيب أو وعظ فإذا أرادوا ذلك فرعوا إلى الطليانيّة وهو دليل على سفالة طبعهم حيث لم يحافظوا من اللغة إلا على المبتذل وإذا أخذوا من الطليانيّة ما مسّت الحاجة إليه ملّطوه وأحقّوه بتركيب لغتهم كقولهم مثلاً "مايرنشيش" أي ما يوافق و"كونشيته" أي عرفته ففي الأوّل ياء المضارعة والشين التي يزيدونها بعد النفي كما تراد أيضاً في اللغة المتداولة الآن في مصر والشام وهي مختصرة من لفظة شيء وفي الثانية ضمير المتكلم والغائب وكقولهم "عندي بياشير" أي سرور فيجعلون الظرف خبراً مقدماً والنكرة مبتدأ مؤخرًا فهو جار على قواعد العربية وقد قلت فيها:

تَبّاً لها لغة بغير قراءة

وكتابة عين بلا إنسان

تبليّل الألباب في تركيبها

ويَكِلُ عنها كل حد لسان

أذناها ورؤوسها عريّة

فَسَدَتْ وَأَوْسَطَهَا مِنَ الطَّلِيَانِي

فإن قيل أن الأذئاب والرؤوس هنا كناية عن أوائل الألفاظ وأواخرها كأداة المضارعة وأل التعريف ونون الوقاية وهذه باقية على الأصل فلما وصفتها بالفساد قلت إن أداة المضارعة مكسورة عندهم على كل حال وكذا أداة التعريف والضمير غير ظاهر فإنهم يلفظون به كالواو ويحتمل أيضاً أن يكون "فسدت" دعاء في المعنى ومع كثرة ما بقي عندهم من مفردات العربية وجملها وتآليفها ولا سيما في الأمور المتعارفة كما ذكر فقد ذهب عنهم مرادف الأب وإنما يقولون "مسار" بالإمالة وكأنها محرفة عن "موسيو" بالفرنساوية فإن حق التلفظ بها أن يكون "مونسيور" وكذلك ذهبت عنهم كلمة التحية صباحاً ومساءً فيقولون "بون جورنو عليك" ولعل سبب ذلك أن المسلمين لما افتتحوا جزيرتهم كانت

التحية بينهم "السلام عليكم" وكان استعمالها مقصوراً عليهم كما هو في بلادنا فلم تعرف بين الأهليين وليس هذا بأعجب من ذهاب تحيات العرب العاربة عن المستعربين وقولهم الآن "صباح الخير" الظاهر أنه مولد ومن الغريب أن بعض أعيان المالطين يحاكون الإفرنج في أطوارهم وهيئاتهم حتى إذا نطقوا بلغة أنفسهم زال عنهم ذلك الرواء وانجلى ذلك الإهام، وإذا تكلموا خلطوا جملة إيطالية بأخرى من لغتهم لكن هذه هي الغالبة فإنها لغتهم في الطفولية وقد أخبرني أحد فضلائهم أنه أقام مدة طويلة في إيطاليا فكان حينئذ يُقدّر خواطره وأفكاره بلغة أهلها ثم لما رجع إلى مالطة لم يلبث أن عاد إلى تقديرها بلغته فصديق عليه قول الشاعر:

كل امرئ راجع يوماً لشيئته

وإن تخلّق أخلاقاً إلى حين

وأغرب منه أن المالطين يأنفون من تعلم العربية بسبب المثلية بينها وبين لغتهم وهو عين السبب الذي يوجه عليهم

لكونهم والحالة هذه لا يعانون في تعلمها مشقة وعناء ومع أن الذين يعاملون منهم أهل العربية كثير والقاطنين في بلادهم هم أكثر فما أحد منهم يهتم أن يتعلم العربية قراءة وكتابة على أنك تجد في جميع بلدان أوروبا أفراداً يدرسونها حق دراستها. ثم إن آراء الناس لما كان من شأنها التفاوت والتباين في جلاء الحقائق ولا سيما إذا كان محل البحث غير متسق على وتيرة واحدة وكانت اللغة المالطية تشتمل على ألفاظ من لغات مختلفة اختلفت فيها الأقوال والأحكام فزعم بعضهم أنها فينيقية لوجود كلمتين فيها منها وهما البير والصيد كما مر بك في أول هذا الكتاب وزعم آخرون أنها حبشية لوجود لفظة واحدة فيها وهي المنبر فإن معناها عندهم الكرسي الذي تلد عليه المرأة كما هو في الحبشية وهو وهم على ما تحققت من أهل اللغة المذكورة وعلى فرض صحة ذلك فلا ينكر أن كثيراً من الكلام العربي الذي بقي في أهل مالطة مستعمل بطريقة الجواز إما بذكر اللازم وإرادة الملزوم وإما بتخصيص العام وتعميم الخاص كقولهم مثلاً وحلت للوقوع في الأمر الصعب وأصله الوقوع في الوحل خاصة ونحو الطلاب

للمتكفف وهو اسم فاعل للمبالغة من طلب في كل أمر ونحو
مغلوب للنحيف وهو اسم مفعول من غلب وهو لازم له غالباً
وفتيت أي قليل وهو من فت الشيء إذا كسرتة وصغرت جرمه
وأشبه ذلك مما لا يحوج إلى برهان فيكون المنبر على هذا مما عدل
به عن وجه استعماله تجوزاً كما أنه عدل به أيضاً في العريضة
الفصحى من التعميم إلى الخاص فإن معنى النبر في اللغة الارتفاع
فالمنبر على هذا آلة الرفع أو محله ثم خصص عند قوم بمحل الخطبة
وعند غيرهم بكرسي الولادة وإنما قلت آلة الرفع أو محله فقد قال
الإمام الخفاجي في شرح درة الغواص ما صه هذا تحقيق بديع لما
فيه من الفرق بين اسم الآلة التي تتناول باليد وغيرها فيتعين كسر
الأول إلا شذوذاً فيفتح بعض من الثاني كمرقاة ومنارة لأنه من
وجه آلة ومن وجه مكان وهو فرق لطيف قل من تنبه له أو نبه
عليه اهـ والحاصل أنه لا شك في كون اللغة المالطية عريضة
ولكني لست أدري أصل هذا الفرع أشامي أم مغربي فإن فيها
عبارات من كلتا الجهتين والغالب عليها الثانية غير أن الألفاظ
الدينية من الأولى فيقولون مثلاً القدّاس والقدّيس والتقربن

والأسقف وما أشبه ذلك مما لا يفهمه أهل المغرب ومن المالطيين من يقر بأن لغتهم غير فينيقية ولا حبشية ولكن لا يكادون يقرّون بأنها فرع العربية مكابرة وعناداً ولا يخفى أن كل لغة في العالم لابد وأن يدخلها بعض ألفاظ أجنبية إما للحاجة إليها أو لتقارب أهل اللغتين واختلاطهما كالعرب والفرس مثلاً والرومانيين واليونانيين في الزمن السابق وهذه اللغة العربية مع سعتها وغازارة موادها وكثرة تصاريফها لم تخل عن ألفاظ بعضها من الفارسية وبعضها من اليونانية وبعضها من الحبشية والهندية والسريانية والعبرانية ولم يقل أحد أن العربية فرع عن هذه اللغات فكيف لعقلاء مالطة أن يقولوا أن لغتهم فينيقية بسبب وجود كلمتين منها فيها وأقبح من ذلك أنهم يظنون أن فساد لغتهم وانعكاسها عن أصلها العربي ليس من العيب في شيء قياساً على أن الطليانية انفسخت عن اللاتينية واستقلت بصيغ خاصة بها دون الأصل وهو مدفوع بأن العربية لم تنقض دولتها كما انقضت اللاتينية حتى تستقل المالطية بقليل موادها وبأن المالطية لم يؤلف فيها شيء إلى الآن من كتب العلم والأدب ولم يتكلم بها أقوام فالفرق واضح

والحاصل أنهم لا يرون فسادها ولا يشعرون بقبحها ضرورة أنهم لم يطلوا على محاسن أصلها الذي حلثوا عنه. نعم أن أهل الشام ومصر والحجاز وغيرهم قاصرون عن اللحاق بأهل العربية الفصحى ولكن ما منهم إلا من يشعر بقصوره عنها ويدري عظم التفاوت بين الطرفين وكل يود لو يصل إلى درجة الكمال في معرفتها، وكنت ذات يوم سائراً مع جماعة منهم فأخذ أحدهم يصف لغتهم وجعل من محاسنها اجتماع الألفاظ العجمية فيها كأنه يقول أنها انتقت ما شاق وراق فمثلها مثل العجوز التي رأت زوجها يزني. ولشدة تعصب المالطين على أهل اللغة العربية وتشنيعهم عليهم إذ كان منتهى السب عندهم أن يقولوا عربي كان الإنكليز وسائر الإفرنج أقرب مهم إلى تعلمها غالباً ولو كان عند أولئك ركن منها عظيم وذلك أن المالطي العنيد إذا سمع في العربية مثلاً لفظة خرج وكانت عادته منذ نطق أن يقول حرج فلا يرى في ذلك كبير فرق ولا يرى أن نقطة صغيرة تُقَوِّم المعنى أو تفسده بخلاف من يتعلم من أول الأمر أن يقول الكلمة على حقها وكانوا إذا سمعوني وصاحبي نتكلم قالوا ليس من فرق كبير

بين اللغتين إلا عجمة في لغتهم يعنوننا ولا يخطر لهم ببال أن لغة لم تُضَمَّنْ بطون الأوراق ولم تضبطها الأحكام النحوية لا تكفي النوع الإنساني وقد تصدى مرة أحد مؤلفيهم إلى تأليف كتاب نحو فيها فكتب بعد طالعه ألفاً بتو اللغة المالطية ثم ذكر العين بعد الألف فكان خلفاً لأن جميع اللغات التي تبتدئ بهذا العنوان تكتب فيها الباء بعد الألف فلما وقفت على ذلك كتبت له:

يا قائلاً ألفا بتو وبعدها ألف عين

إن كان ذا البدء مينا فكل ذا النحو مين

ويقال إن جميع اللغات القديمة والحديثة تبدأ بالألف إلا الحبشية فإنه فيها الحرف السابع عشر والظاهر من ترتيب حروف المعجم في العربية والسريانية والعبرانية أنها أي العربية لا ارتباط بينها وبينهما. وأهل مالطة يلفظون الغين أينما وقعت عيناً والخاء حاء والفلاحون منهم يلفظون القاف همزة ويشمون الألف في نحو قال وباع الضمة وهو غريب فإن الضم أيضاً عند الهمج من أهل

الشام وينطقون بالضاد دالاً وبالطاء تاء ولا يلفظون العين إذا
 كانت متطرفة أصلاً فيقولون تلا أي طلع وسما أي سمع ويقال
 إنهم كانوا في القديم يلفظون التاء على حقها. ومما يضحك منه أن
 الفلاحين إذا خدموا أهل فالتة غيروا لهجتهم لفظوا الغين عيناً
 والخاء حاء توهم أن لغة هؤلاء هي الفصحى. وأهل غودش
 يميلون الألف في نحو فيها ومنها والجميع ينطقون بالجيم نطق أهل
 الشام إلا في قولهم جدى فإنهم يلفظونها كأهل مصر والظاهر أن
 حق النطق به أن يكون قريباً من مخرج الشين كما في لغة أهل
 الشام. ففي المزهري في الفائدة الخامسة من النوع التاسع وهو معرفة
 الفصح ما نصه قال الشيخ بهاء الدين في عروس الأفراح قالوا
 التنافر يكون إما لتباعد الحروف جداً أو لتقاربها فإنها كالطفرة
 والمشي في القيد نقله الخفاجي في سر الفصاحة عن الخليل بن
 أحمد وتعقبه بأن لنا ألفاظاً حروفها متقاربة ولا تنافر فيها كلفظ
 الشجر والجيش والفم وقد يوجد البعد ولا تنافر كلفظ العلم
 والبعد ثم رأى الخفاجي أنه لا تنافر في البعد وإن أفرط بل زاد
 فجعل تباعد الحروف شرطاً للفصاحة وقال الأشموني عند ذكر

الإبدال الشين أبدلت من ثلاثة أحرف الكاف والجيم والسين
فالكاف نحو أكرمتك قالوا أكرمتش وهي كشكشة تميم كما
تقدم والجيم كما في قوله إذ ذاك حبل الوصال مدمش أي مدمج
قال ابن عصفور ولا يحفظ غيره وسهل ذلك كون الجيم والشين
متفقين في المخرج هـ. إلا أنه يظهر أيضاً أن الجيم كثيراً ما
تبدل من القاف والكاف مما يؤيد مذهب أهل مصر فمن إبدالها
من القاف قولهم قف العشب وجف والمقذاف والمجذاف وقلمه
وجلمه والقشم والجشم وشق وشج والقرقس والجرجس وقص
وجز وتلقف الخوض وتلجف والشرق والشرح ونظائر ذلك
كثيرة ومن إبدالها من الكاف قولهم كد وجد وكهد وجهد وأكن
وأجن وكرع وجرع وكلية الزمان وجلبته والمكالحة والمجالحة
وعكر به وعجر والركس والرجس وما أشبه ذلك. فعلى هذا
يكون استعمال أهل مصر له صحيحاً ويؤيده ما ورد في المزهري في
النوع الرابع عشر قال المهمل على ضريين ضرب لا يجوز ائتلاف
حروفه في كلام العرب البتة وذلك كجيم تؤلف مع كاف أو
تقدم كاف على جيم وكعين مع غين أو حاء مع هاء وأيضاً

فإنهم يعربون مرة بالجميم وأخرى بالقاف مثال الأول الديزج
والنيرنج ومثال الثاني الرستاق والفرزدق وربما أبدلت من الحرفين
معاً كقولهم سهجه وسهكه وسحقه والذي يظهر لي أن ذلك لغة
لبعض العرب غير أن أهل الصعيد والمغاربة وأهل الحجاز ينطقون
بالجميم كأهل الشام. ثم إن أهل غودش ينطقون بالأحرف الحلقية
على حقها إلا أنهم يكسرون ما قبل الساكن فيقولون مكسور
ومفتوح ويضمّون ما قبل الألف نحو قاعد وهلمّ جرّاً ويقولون
منكم وعليكم بكسر الكاف وهي لغة ربيعة وقوم من كلب كما
في المزهر في النوع الحادي عشر وتسمى الوكم ويقولون أيضاً
منهم وبينهم وهي أيضاً لغة كلب ومن سفهاء المالطين من يدعي
النظم بلغتهم هذه الفاسدة ويقال له عندهم التقبيل فمن ذلك
قولهم:

ين حنينا ساير نسافر

ساير نسافر ما نأحدكش معي

مور وهيّا بالسلامة

الله يظملك في المحبة تيعى

وبقي هنا حل ما أعجم من الألفاظ المنكرة قوله ين بمعنى
أنا وحنينا بمعنى حبيب منادى محذوف منه حرف النداء ومن
الغريب هنا أن المنادى إذا كان عظيماً خطيراً يدخلون عليه أداة
النداء من الطليانية فيقولون أو مولاي وإذا كان حقيراً أدخلوا عليه
أداة النداء من العربية فيقولون يا تفاح يا غنب وقوله ساير نساfer
هو مثل قول عامة مصر والشام رايح أسافر وما ألطف هنا عبارة
الإمام الزمخشري في شرحه لامية العرب إذ قال وأما المستقبل وإن
كان معدوماً في الحال ولكن هو مار إلى الوقوع والتون في نساfer
علامة للمفرد المتكلم لا الجمع فإنه نساferو وهي لغة أهل المغرب
والشين في ناحد كس لازمة عندهم بعد النفي والاستفهام كما في
العربية الدارجة ومن أهل الشام من يراها أيضاً لازمة ولو بعد

الجملة فيقولون ما هو كثيرش فكأن إبرازها ضربة لازب وميعى أصله معي ومور فعل أمر من مار أي ذهب وهو في اللغة كذا وهيا اسم فعل بمعنى أقبل وذكره صاحب القاموس مكرراً وفسره بأنه زجر وهو غريب ولا يبعد أن يكون أصله حي ويطربني ما روي عن ذلك الإعرابي الذي سمع رجلاً يدعو آخر بالفارسية يقول له زود فقال لأصحابه ما يقال قالوا يقول عجل فقال ألا يقول حي هلك وعلى حي هلك تخرج أحجية بديعة ويظمك أصله أما يزمك أو يضمك وما قبل الضمير المنصوب مضموم وهذا من بعض آثار محاسن العربية القديمة في هذه البلاد والباء من المحبة مفتوحة فتحة مشبعة وكذا في كل مكان به علامة التأنيث نحو طيبة وكبيرة وهي أيضاً من تلك الآثار وأحسن من الأمانة فأما تيعى فقد خبط فيها بصراؤهم خبط عشواء وذلك لأنهم يدخلون بين والمضاف والمضاف إليه لفظة تا فيقولون مثلاً الدار تا الطبيب فمنهم من زعم أنها من الطليانية فإن المضاف فيها يفصل عن المضاف إليه بلفظة دي ومنهم من زعم أنها من السريانية فإنها فيها كذلك ثم إذا أضافوا تا إلى الضمير برزت معه

العين فيقولون تا عنا فلهذا لم يدركوا أصلها والصحيح أنها محرفة من متاع فإن أهل المغرب يدخلونها كثيراً في الإضافة ويبتدئون بالميم ساكنة على عادتهم من الابتداء بالساكن وتقصير اللفظ وربما قالوا نتاع بالنون ساكنة أيضاً فأما العين فإن المالطيين لا يكادون ينطقون بها إذا وقعت آخر الكلمة فيقولون تلا وقلا في طلع وقلع كما ذكرنا آنفاً ويحذفونها أيضاً إذا اتصل بها ضمير فيقولون طليت وقلت جرياً على حذفها بغير اتصال الضمير وقلب العين ألفاً أو همزة من أساليب العرب كما في تفصى وتفصع وأقنى وأقنع والشما والشمع وتكأكأ وتكعكع وزقاع الديك وزقاعه وزازا وزعزع أي حرك وبدأ وبدع وأمرأة خبأة وخبعة أي تختبئ تارة وتبدو أخرى والخباء والخباع والخبء والخبع ونظائر ذلك كثيرة حتى إنهم قلبوها متوسطة كما تأرض وتعرض ودام الحائط ودعمه فأما تليين الهمزة ألفاً فأشهر من البيئة عليه ومن حرف أيضاً لفظة متاع أهل مصر فقلبوا الميم باء وهي لغة لبعض العرب كما في درة الغواص فيقولون با اسمك في ما اسمك واعلم أن فصل المضاف عن المضاف إليه بأداة أسلوب

حسن يفيد التنصيص وذلك ما إذا كان المضاف منعوتاً بنعت صالح لأن يعود على المضاف إليه أيضاً كما في عذاب الله العظيم بخلاف ما لو كان بينهما فاصل والأرجح رجوعه إلى المضاف كما في المغني ومن نظم المالمطين أيضاً وهو معنى حسن ولكنه مكسور قبيح اللفظ والسبك.

المحجوب تا قلبي سافر

ليلي وفاري بنكيح

جعلتو بدموعي البحر

وبالتهيدات تا قلبي الريح

وهو يشبه قول لسان الدين الخطيب:

والبحر قد خفقت عليك ضلوعه

والريح تبتلع الزفير وترسل

ومثله قول القاضي الفاضل:

كأنّ ضلوعي والزفير وأدمعي

طلول وريح عاصف وسيول

وقول إبراهيم بن سهل الإشبيلي:

إذا أنست ركبا تكفل شوقها

بنار قراه والدموع بورده

ومثله ما ذكره علي بن ظافر في بدائع البدائ:

شراعتها من فؤادي وبحرها من دموعي

وبقي هنا إصلاح فاسد اللفظ فنقول قد مر شرح تا أنها
تكون بين المضاف والمضاف إليه ونكيح الحاء مبدلة من الهاء وهي
لغة للعرب أيضاً فيقولون الملية والمليح والهاضوم والحاظوم والمده
والمدح وتاه وتاح وشقه النخل وشقحها وقوله البحر محركة جار
على القياس من أن الاسم الثلاثي الذي أوسطه حرف حلق يجوز
الفتح فيه نحو شعر وشعر ونهر ونهر قال الإمام الخفاجي في شرح

درة الغواص قال ابن جني في المحتسب قرأ سهيل بن شعيب السهمي
جهرة وزهرة في كل موضع محركاً ومذهب أصحابنا في كل حرف
ساكن بعد فتح لا يحرك إلا على أنه لغة فيه كالنهر والنهر والشعر
والشعر ومذهب الكوفيين أنه يجوز تحريك الثاني لكونه حرفاً حلقياً
قياساً مطرداً كالبحر والبحر قال وما أرى الحق إلا معهم ومما
أنشدني أحدهم بمحضر جماعة:

ينا اشتقت نجى فوق سدتك

نجى شبيهه تا عصفور

نظفي المصباح بجوانحي

نعطيك بوسه ونرجع نور

فقلت له لو قلت نأخذ بوسه لكان أولى لأن من يأخذ هنا
خير ممن يعطي فلم يفهم واستعادنيها فأعدتها عليه فلم يفطن لها
لاهو ولا هم أيضاً لأن المعاريض والمطارحات عندهم في كساد
عظيم والمراد بالسدة عند المالطين نفس الفراش وهو في اللغة باب
الدار وعندي أن قدماء المالطين كانوا همجاً يرقدون على الأبواب
فسموا كل مرقد سدة كما أنهم سمو كل مكنسة مسلحة وهي
الأصل آلة للسلاح وهكذا كانوا يستعملونها ثم أطلقوها على كل ما
ينظف به المكان ولهذا نظائر كثيرة إلا أن أهل طرابلس الغرب
يستعملون السدة أيضاً بمعنى الفراش وقد ذكرت يوماً لأحد من
يتوسم فيه الأدب من أهل مالطة سعة العربية في البديع وخصوصاً
التورية فقال وكذا هي المالطية وذكر هذه الجملة وهي عندك تيناتا
اللحم فقال تينا هنا يحتمل أن تكون مضارعاً من تيته يريد من آتيته
أو أعطيته وتا اللحم يحتمل أن تكون معناها ما يخص اللحم أي ثمنه
وعندك هنا إغراء وعلى المعنى الثاني يحتمل أن تكون لفظة تينا مفرد
التين وتا اللحم مضاف إليها أي تينة لحم والمعنى عندك تينة لحم
كناية عن الأست وإغراؤهم بعند ليس على القياس فإنهم يدخلونها

على الأفعال خاصة ومن سخف تورياتهم أيضاً قولهم علاه من غير ماء يوهمون به غلاء السعر ومما بقي عندهم من فصيح العربية قولهم دار نادية وحققها ندية ولكنها أفصح من قول أهل مصر والشام ناطية وقابلة أي داية وخطر ومخاطرة أي رهان وغرفة أي عليّة وقولهم في الدعاء عمروا وتمروا وبدا لي أي عن لي وتطاول ويشرف وصديد وبطحاء وتبالدوا وهو أفصح من تعاركوا وزفن أي رقص وبوقال وهي أفصح من قول أهل الشام شربة أو نعارة ويماري أي لا يقنع بالحق ويشرق بالماء ويستقصى وفرصاد للتوت وسفود وأهل الشام يقولون سيخ وشيش وقد ورد في كلام النابغة الذبياني بقوله سفود شرب نسوه عند مفتاد وتقزز أي تباعد من الأدناس وعسلوج للفضيب وجلوز وهو البندق الذي يؤكل ولكن هذه الألفاظ كلها مستعملة في الغرب وبهذا يترجّح عندي أن أصل المألّطين من المغاربة. ومن ذلك ضمهم آخر الفعل المضارع أحياناً نحو يحسبك ويبدلك وقولهم وعدة وزنة وهما اسمان من وعد ووزن لا مصدران ولذلك سلم فاؤهما كما قال الحماسي:

وإذا أتى من وجهة بطريفة

لم أطلع مما وراء خبائه

قال الشارح ومن روى من وجهه فمعناه من سفره الذي توجه إليه ويروى لم أطلع ماذا وراء خبائه ومعنى البيت لم أعرض نفسي عليه متعرِّفاً ما جاء به من سفره ليشركني في طرفه ويجعلني أسوة نفسه.

ومما يضحك من كلامهم قولهم هذا رجل من الكلاب وامرأة من الحمير يعنون ذكراً وأنثى لأنه ليس عندهم لفظ مرادف لهما فبطرون إلى هذا التعبير القبيح ويقولون عمل اللحية أي حلق وجهه وكذلك إذا حلق شعر عاتته أيضاً ويقول أحدهم للآخر عند الإبانة والإفصاح ين نكلمك بالمالطي فكأنه يقول أن هذا الكلام قد بلغ من البيان بحيث لا يبقى للسامع محل للشك فيه ويكثرون من جملة قال لي يكررونها في أثناء الكلام مراراً وإذا قصدوا تأكيد خبر كرروا اللفظ خمس مرات فأكثر فيقولون ما ريتوش قط قط قط

قط قط وما كان ليش فلوس خلاف دا بز بز بز بز أي بس
وخاده أي أخذه كله كله كله كله وما يسوى شي شي شي
شي شي ونحو ذلك ومن أوزان كلامهم فاعلة للمصدر فيقولون
عملته بالواقفة أو بالقاعدة قال شارح الشافية أعلم أن مجيء المصدر
على وزن فاعلة أقل من مجيئه على وزن مفعولة كالعافية نحو عافاه
الله عافية والعاقبة نحو عقب فلان مكان أبيه عاقبة وكالباقية كقوله
تعالى فهل ترى لهم من باقية أي بقاء وكالكاذبة كقوله تعالى ليس
لوقعتها كاذبة أي كذب وأهل الشام يقولون يطلع بالطالع ويترل
بالنازل ومن ذلك وزن فعل بالضم نحو سدد وصرر وهو نادر
والأسماء الثلاثة التي أوائلها ضمة يتبعونها ضمة أخرى نحو عمر
وشغل وهو أيضاً جار على القياس وكذلك التي أوائلها كسرة
يتبعونها كسرة أخرى نحو عجل ورجل ومن قبيح عادثهم في الكلام
هم وسائر الإفرنج توجيه ما يسوء من القول للمخاطب بدون
محاشاة فيقولون مثلاً إني أحبك ما دمت أنت حياً وهذا الحر يقتلك
وهذا النبات يقطع لك مصارنك أي مصارينك وهذا التراب يعميك
وإذا مت جاء الطبيب وشرح جسمك عضواً عضواً، أو يقول لك

العائد لا تله عن دائك فإنه قتال وغير ذلك مما يقتضي فيه الإطلاق
ألا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء حبك الشيء يعمي ويصم
ولم يقل يعميك ويصمك وإن يكن المعنى عليه. فأما إمالة صوتهم
عند الكلام وهي التي تسميها الإفرنج أمفازس فغريبة على من لم
يتعود سماعها فإن لهم مدّاً في الصوت وخفضاً غير مألوف لأهل
العربية حتى أن الإنكليز المولودين بمالطة يجرون هذه الإمالة في لغة
أنفسهم انعداء من المالطين وقد يعد هذا النوع عند الإفرنج من
لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فإنهم فيه مُشَطُّون
وهو يكاد أن يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى أو لعله هو
اللهجة وقد لاحظت في أثناء قراءة المشايخ أنهم كانوا يمدون صوتهم
عند التباس المعنى تروياً فيما يستقبلون فكأن هذا المد ضرب منه.
ومما يضحك أيضاً أن للمالطين لازمة في الكلام يكررونها وهي
سميتش محرفة عن سمعت فعلاً ماضياً والشين لازمة عندهم بعد
الاستفهام كما هي بعد النفي ولما كان الإنكليز يسمعونها منهم
مراراً جعلوها علماً على من يجهلون اسمه عند النداء وعلى الولدان
الذين يخدمون على الطعام ثم أن بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة

ولو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة
والتمكن عند من تصل إليهم من الأجيال. ألا ترى أن مالطة قد
تعاقت عليها ذول متعددة ودول لو يحملون أهلها على التكلم
بلغاتهم فلم يتهياً لهم وبقوا محافظين على ما عندهم منهم خلفاً بعد
خلف وهؤلاء الإنكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات جميعاً
وأشهرها وما تهاى لهم أن يعمموها عند المالطين نعم إن الخاصة
منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبوعين فإن محاوراتهم بين
أهلهم إنما هي بالمالطية لا غير وليس الطبع كالتطبع ولا الكحل
كالتكحل ويقال إن الذي تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو
مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة مع أن
الذي جمع ذلك جرى على طريقة الإفرنج من أنهم يقيدون في كتب
اللغة جميع الألفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والآلة والاسم
المنسوب ونحو ذلك وإلا لكان هذا القدر باعتبار أنه مواد كافياً في
المحاورات للإفصاح عما في الخاطر فأما في الكتب فلا، ولا أحسب
الكلام المستعمل، الآن في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر غير

العائد لا تله عن دائك فإنه قتال وغير ذلك مما يقتضي فيه الإطلاق
ألا ترى ما قاله سيد الفصحاء والبلغاء حبك الشيء يعمي ويصم
ولم يقل يعميك ويصمك وإن يكن المعنى عليه. فأما إمالة صوتهم
عند الكلام وهي التي تسميها الإفرنج أمفازس فغريبة على من لم
يتعود سماعها فإن لهم مداً في الصوت وخفضاً غير مألوف لأهل
العربية حتى أن الإنكليز المولودين بمالطة يجرون هذه الإمالة في لغة
أنفسهم انعداء من المالطين وقد يعد هذا النوع عند الإفرنج من
لوازم الفصاحة ولكن ليس كالذي يجريه المالطيون فإنهم فيه مُشَطُّون
وهو يكاد أن يكون في العربية مفقود الاسم والمسمى أو لعله هو
اللهجة وقد لاحظت في أثناء قراءة المشايخ أنهم كانوا يمدون صوتهم
عند التباس المعنى تروياً فيما يستقبلون فكأن هذا المد ضرب منه.
ومما يضحك أيضاً أن للمالطين لازمة في الكلام يكررونها وهي
سميتش محرفة عن سمعت فعلاً ماضياً والشين لازمة عندهم بعد
الاستفهام كما هي بعد النفي ولما كان الإنكليز يسمعونها منهم
مراراً جعلوها علماً على من يجهلون اسمه عند النداء وعلى الولدان
الذين يخدمون على الطعام ثم أن بقاء اللغة العربية في جزيرة مالطة

ولو محرفة مع عدم تقييدها في الكتب دليل على ما لها من القوة
والتمكن عند من تصل إليهم من الأجيال. ألا ترى أن مالطة قد
تعاقت عليها دول متعددة ودول لو يحملون أهلها على التكلم
بلغاتهم فلم يتهياً لهم وبقوا محافظين على ما عندهم منهم خلفاً بعد
خلف وهؤلاء الإنكليز يزعمون أن لغتهم ستكون أعم اللغات جميعاً
وأشهرها وما تهاى لهم أن يعمموها عند المالطين نعم إن الخاصة
منهم يتعلمونها ولكن ليسوا عليها بمطبوعين فإن محاوراتهم بين
أهلهم إنما هي بالمالطية لا غير وليس الطبع كالطبع ولا الكحل
كالكحل ويقال إن الذي تحصل عند أهل مالطة من العربية مما هو
مأنوس الاستعمال وغير مأنوسه يبلغ عشرة آلاف كلمة مع أن
الذي جمع ذلك جرى على طريقة الإفرنج من أنهم يقيدون في كتب
اللغة جميع الألفاظ المشتقة كاسم الفاعل والمفعول والآلة والاسم
المنسوب ونحو ذلك وإلا لكان هذا القدر باعتبار أنه مواد كافياً في
المحاورات للإفصاح عما في الخاطر فأما في الكتب فلا، ولا أحسب
الكلام المستعمل، الآن في بر مصر والشام يزيد على هذا القدر غير

أن أهل الشام فيما أظن أكثر مواد من أهل مصر كما أن هؤلاء
أحسن منهم نسق عبارة والله أعلم.

تم الجزء الأول المسمى بالواسطة إلى معرفة أحوال مالطة
ويتلوه الجزء الثاني المسمى بكشف المخبا عن تمدن أوروبا.

أحمد فارس الشدياق

سيرة حياتية - قلمية

١٨٨٧-١٨٠٤

ولد في لبنان، رحل إلى مصر ومالطة وتونس وزار فرنسا وبريطانيا، ثم استقر في الأستانة -تركيا- حيث أسس جريدة "الجوائب: ١٨٦١-١٨٨٣" وهي من أهم الصحف العربية في القرن التاسع. حقق ونشر كثيراً من كتب التراث العربي وطبعها في مطبعة الجوائب التي أسسها تطبع جريدته. يعتبر من أهم كتاب العرب في عصر النهضة الحديث.

من مؤلفاته:

١- الواسطة في معرفة أحوال مالطة- الكتاب الذي نعيد نشره، وقد قضى الشدياق في مالطة الأعوام ما بين (١٨٣٤-١٨٤٨) معلماً ومترجماً ومصححاً في مطبعة المرسلين الأمريكان (البروتستانت). وفي هذه الفترة كتب "الواسطة"

٢- اللطيف في كل معنى ظريف.

٣- كشف المخبا عن فنون أوروبا

٤- غنية الطالب ومنية الراغب

٥- الجاسوس على القاموس

٦- سر الليال في القلب والإبدال

٧- الساق على الساق فيما هو الفاريق -أهم كتبه

وأشهرها-

٨- منتخبات الجوائب

٩- خبرية أسعد الشدياق

إضافة إلى كتب أخرى.

مختارات

كتاب شهري تقدمه وزارة الثقافة
ودار البعث هدية للقراء مساهمة منهما
في متعة القراءة وفائدتها عبر تقديم كتب
قديمة وجديدة فيها متعة للنفس و فائدة
للعقل وبهجة للروح .



أبو عبدو البغل

<https://facebook.com/groups/abudub/>